الموضوعات:

* مقدمة: أقدارنا وصناعة شخصياتنا

في السلطة:

* قائد سلاح المغاوير وحافظ الأسد: اكتشاف تأخر كثيرا

* القيادتان القطرية والقومية لحزب البعث السوري

*مقام السيدة زينب : اللبنات الأولى لتشييع سورية

*السلمية : عاصمة الإسماعيليين في العالم . الأسد يتصالح مع الآغا خان

* السويداء: موحدون عرب بلا مساجد!

* سعد الله ونوس: أكره منبر المسجد!

في العمل الإسلامي:

* في مسألة (الإخوان المسلمين) بين السورية والمصرية والدولية

في أحوالنا وتحولاتنا:

* من نوبل توكل كرمان ، إلى نوبل ناديا مراد: خلاصة التحولات

* بوح رمضاني: كم أبكى الأسدان الأب والابن من أمهات وآباء!
* الدكتور حسن الترابي: نجم إسلامي عالمي ، أخفتت ضياءَه سودانيتُه

في حمص وتجلياتها الدينية

* الشيخ عبد العزيز عيون السود: علم قرآني لا يضاهى ومفخرة كبرى لحمص

* الشيخ عبد الغفار الدروبي: حلاوة الإيمان وعذوبة القرآن
* الشيخ وصفي المسدي: اغرف من بحار علمه لو استطعت

مقدمة

أقدارنا وصناعة شخصياتنا

سيكون متأخرا قليلا العمر الذي تعي فيه نفسك وشخصيتك واختياراتك في هذه الحياة. لكنك حين تتذكر سنيك وماضيك، سترى نفسك في سني عمرك الأولى، مصاغا تماما دون تفكير تبعا لوالديك ومدرستك وأساتذتك والبيئة المحيطة بك بشكل عام. ربما في نهاية المرحلة الثانوية وبدء الجامعة، ستفكر طويلا باختياراتك وتوجهاتك التي ستقررها أنت بنفسك. وحتى هذه فلن تكون فيها كامل الحرية، بل ستكون البيئة أو المجتمع الذي تعمل فيه ومعه أحد العوامل المؤثرة التي لن تستطيع الفكاك منها.

صور شتى من عمري يوم كان أربع سنين، مازالت ماثلة أمامي! لكنني يوم كنت في الخامسة من عمري في الصف الأول في مدرسة الخالدية الخاصة قرب قلعة حمص ، كنت مدركا تماما ما أتعلمه وأراه، وأزعم أنني أحفظ تفصيلاته حتى اليوم. في الصف الثاني الابتدائي ستكون

الأمور أوضح! لكن واحدة من الذكريات ما تزال مرعبة! المدرس يحمل العصا ويضرب رؤوس الطلاب نقرا خفيفا : ارفعوا أصواتكم بجدول الضرب. أريد صوتكم أن يصل حمص كلها... نحفظ جدول الضرب في الصف الثاني كاملا ربما بسبب الأداء الجماعي والعصا فوق الرؤوس. في منتصف العام الدراسي، أنتقل إلى مدرسة الجلاء الابتدائية قرب (دوار) الحاج عاطف أتاسي. أتممت الصف الثاني بشكل غير رسمي، وفي الصف الثالث أصبحت طالبا نظاميا ولدي سجل كباقي الطلاب. واحدة من الأقدار التي سأدفع ثمنها بطريقة ما، أن تكون في صف تنافس فيه طلابا، كلهم أكبر منك بعامين في الأقل!

من ذكريات تلك المرحلة تعليم الطلاب على التبرع ولو بالقليل لما كان يسمى(معونة الشتاء) . في تلك المرحلة أيضا سيكون بيننا طلاب مسيحيون. سنتذكر فيما بعد كيف كان بعضهم يترك الفصل في مادة التربية الإسلامية ليلعب في باحة المدرسة، وكيف كان بعضهم يفضل البقاء في الفصل، لكي يتعلم معنا، أو لكراهته أن يكون وحيدا خارج الصف! سيكون بيننا صداقات ممتدة. في تلك المرحلة أيضا سيكون بيننا طلاب فلسطينيون من الطبقة الميسورة التي لم تجبر على العيش في المخيمات. بعض هؤلاء ما زالوا أصدقاء مقربين حتى اللحظة. في المرحلة الثانوية عرفنا أكثر أن الفلسطينيين اللاجئين طبقات! الميسورون في المدارس العادية وبين أبناء المدينة في كل مكان. ثم هنالك الفقراء المساكين في المخيمات الكئيبة تحت رحمة الأمطار، والغوص في الأوحال! المرحلة الابتدائية خطيرة جدا في التكوين، وعلى أولياء الأمور أن يحسنوا اختيار المدارس والبيئة المدرسية لأولادهم وبناتهم. الغلط في الاختيار قد يكون ثمنه كبيرا جدا فيما بعد. كذلك الاختيار الموفق قد يكون مكلفا قليلا، لكنه سيكون مربحا كثيرا فيما بعد: التعليم أعظم استثمار!

في هذه المدرسة، بدءا من الصف الثالث، سنسمع بحزب البعث العربي الاشتراكي الذي ستلازمنا مصائبه عشرات السنوات ، منذ الانقلاب المشؤوم عام 1963. كان عمري يوم حصل الانقلاب ، ثمانية أعوام . لذا فأحداثه واضحة في مخيلتي! أول صورة أمامي صورة الفريق لؤي الأتاسي بنياشينه ونجومه كقائد(مفترض للثورة) ! ثم صورة أحد الأساتذة البعثيين: أبو العز الأتاسي... بكرشه الكبير وعينه المصابة . هو أمامي بالرشاش القصير الذي كان يسمى(السنبال) وكان يحمله يومها البعثيون المدنيون الذين تدربوا فيما يبدو على بعض الأمور العسكرية. نزل هؤلاء إلى الشوارع لينشروا الرعب أو يدافعوا عن أمر ما يتوجسون منه! أصبح اسمهم (الحرس القومي) فيما بعد. في هذه المرحلة سنتعلم أن الأستاذ (سامي ألفين) ناصري وأنه اعتقل لاحقا! أول اعتقال سياسي عرفته لأحد في حياتي. لاحقا سيكون أمرا معتادا...كل مرحلة لها معتقلوها ولها من يعتقل فيها!

من الصف الثالث سأتعلم أن أقرأ غير كتب المدرسة. في الصف الرابع يهديني الأستاذ معاذ أتاسي القصة العالمية الرائعة (روبنسون كروزو) .صور هذا الإنسان الذي رمته الأمواج على شاطئ جزيرة نائية، سترافقني مديدا، حتى ألتقيها مع حي بن يقظان بعد سنين ! طوال تلك السنوات ستكون قصص كامل الكيلاني صديقة الطفولة. لكن للكتاب معي قصص أخرى.
استلمت مكتبة الصف. كنت أسجل القصص التي يأخذها الطلاب معهم أسبوعيا وأستردها. لم تنته القصة عند هذا الحد! كان علي أن أشتري قصصا وكتبا لمكتبة الصف. كنت مكلفا بجمع (الفرنكات) أسبوعيا. وسيكون علي أن أشتري كتب المدرسة أيضا بالتعاون مع شقيقي. ولقد كانت كتب الرصيف المستعملة أو الجديدة على سور(سراي) حمص ، واحدة من أفضل مصادري على الدوام. يومذاك اشتريت قصصا وكتبا كثيرة صنعت فكري وخيالي ووجداني. لا أنسى يوم اشتريت السيرة الذاتية للضابط الفرنسي الكبير العقيد (الماركيز دو لافاييت) الذي شارك في حرب استقلال أمريكا عن بريطانيا. من ذلك الكتاب، ومن سن العاشرة سأحفظ القصة الأسطورية الخالدة : سأل الأستاذ الطلبة الصغار عن الحصان الحر. لافاييت أذهل الجميع: الحصان الحر هو الذي يقذف بصاحبه إذا حاول أن يضربه بالسوط!

في بيت جدي لوالدتي، وبسبب من أخوالي الذين يكبرونني بحوالي عشر سنوات، سيكون لي موعد آخر مع الشغف بالقراءة! الكتب المدرسية والكتب الموجودة في مكتبة أخوالي. لا أنسى الكتاب المقرر عليهم للمطالعة: قصة العالمة الفرنسية البولونية المذهلة ماري كوري.
جائزتان اثنتان من نوبل في الفيزياء والكيمياء. كنت أقرؤها بشغف هائل وتملك علي قلبي، لكن منها أيضا تعلمت الاهتمام باللغة العربية. كانت القصة مقررة لزيادة المقدرة اللغوية عند الطلاب، إضافة إلى مادتها العلمية التربوية المحفزة.. في بيت أخوالي أيضا كانت لؤلؤة المجلات العربية يومها: (مجلة العربي) الكويتية حاضرة دوما. كانت مقالة رئيس تحريرها الدكتور أحمد زكي ، موضع انتظار شهري. لم يكن لبيت عربي فيه حظ من ثقافة إلا أن تكون مجلة العربي الكويتية الجميلة حاضرة فيه. بعد خمسة عشر ستنشر لي هذه المجلة مقالا يتيما ثم تبدأ بالاعتذار عن عدم النشر! لعلها المرة الأولى التي يأتيني منها مبلغ من المال محترم مقابل هذا المقال. فيما بعد سأنشر في بعض الصحف والمجلات، وسأسعد حقا بمكافآت المقالات التي لم تكن تخطر على بال!

لكن أمرا آخر سيكون له في الفترة نفسها أثر في نفسي كبير. إنه قصص جمعية التمدن الإسلامي التي ستتملك روحي! قصة عمر بن الخطاب ملأت علي وجداني. قرأتها تلك الأيام عشرات المرات. عشقي للفاروق لا ينتهي. حتى الآن كتب عن عمر تزين مكتبتي... قصة خالد بن الوليد، مرسوما على صهوة حصان، ألهبت عواطفي ومخيلتي وأنا ابن عشر سنين على الأكثر. من مثل خالد بن الوليد بطلا يلهب خيال الفتيان! كان لي موعد أسبوعي يوم الجمعة

مع برنامج عدنان شيخو الذي تعرفه سورية جيدا بصوته الروحاني العجيب. كان برنامجه يملأ قلبي حبا لله ولنبيه! منذ تلك الفترة عرفت معنى البكاء حبا في الله وعشقا للإسلام ونبي الإسلام.

في بيت جدي لوالدي سيكون لي قصة أخرى مع الكتب والمجلات. لا أدري لماذا كانت مكتبة بعض أعمامي ملأى بالمجلات العسكرية! إن صور الضباط السوريين وأسماءهم ما تزال في المخيلة. كانت صور حسني الزعيم والعقيد الشيشكلي واللواء جمال فيصل وغيرهم تملأ الصحف والمجلات ...طبعا كانت

المقالات نوعا من الدعاية السياسية، لكنها أدخلتني في أجواء ساحرة: النجوم الذهبية على الأكتاف، والنياشين (الزائفة) على الصدور، والجماهير المحتشدة تحيي الجنرالات! الخطوة الأهم ستكون مع شهيد ميسلون يوسف العظمة! يوسف العظمة مميز جدا في التاريخ السوري المعاصر. وما قصر الكتاب والصحف والمجلات في الكتابة عنه. لكن صور هذا الشهيد الكبير الملونة الزاهية، والهيبة التي أسبغت عليه، والخوذة المميزة على رأسه كانت تفعل بي فعل السحر. تعلمت حب سورية وعشقها مع حبي ليوسف العظمة واستشهاده. كانت المجلات تصنع عددا خاصا سنويا ليوسف العظمة وتضعه في أعلى المراتب. كنت أحتضنها وأتملاها وأسبح بمخيلتي معها. كان شهيد سورية كلها ورمز تحديها للاستعمار الفرنسي.

**في المرحلة الابتدائية، تعرفت على أجزاء كبيرة من سورية. المدرسة أخذتنا إلى صيدنايا ومعلولا قرب دمشق. بلدة السريانية أو الآرامية التي ما تزال يتكلم بها حتى الآن. الأديرة في قمة الجبل وأحاديث السيدة العذراء (ومعجزاتها) كانت مشاهد وقصص لا تنسى. المدرسة تأخذنا إلى دمشق الحميدية والجامع الأموي الكبير درة دمشق وحضنها ، والمتحف الوطني قرب الجامعة، وميسلون قمة الشهادة... ثم تأخذنا إلى الساحل السوري ومصايفه فنتعرف على جزء جبلي أخضر سامق وفاتن من بلدنا. ولا يمكن لمدرسة سورية إلا أن تأخذ طلابها إلى مدينة تدمر الأثرية العظيمة. هناك سنتعرف على الآثار الرومانية من أعمدة شاهقة، وتماثيل، وأسلحة، ومعدات. في متحف تدمر سنتعلم أكثر عن التاريخ وشواهده وعادياته. صحراء ممتدة وآثار راسخة قوية لمحتلين غزاة! تدمر هذه التي ستضم فيما بعد أسوأ سجن وأقساه ، وستشهد أيضا استشهاد آلاف السوريين الشباب في مذبحة تدمر 1980 وما تلاها...وفي تدمر سنأخذ دروسا في (الزباء) الملكة السورية المحاربة للروم المحتلين.
رحلات المدرسة الابتدائية ستعرفني مبكرا على أرجاء من سورية ، وستأتي مراحل أخرى لأطوف بها في مدن وحواضر سورية متفرقة، تتمم ما نقص من معرفة وخيال ايضا.**

في المرحلة الابتدائية نما حبي البريء لسورية . كانت تأخذني الحماسة للأناشيد الوطنية ، والأغاني الوطنية! اشتغل البعث مبكرا على أناشيد سورية والبعث والثورة وفرغ لها الشعراء والملحنين والمطربين... بعد عودتنا من رحلة مدرسية إلى دمشق، سيكون مطلوبا منا كتابة موضوع تعبير(إنشاء) عن الرحلة ومشاهداتها. سيكتب صاحبنا موضوع التعبير ليصبح حديث المدرسين: "... وفي دمشق قرب جبل قاسيون تذكرت الأغنية الجميلة: من قاسيون أطل يا وطني ... فأرى دمشق تعانق السحب... آذار يدرج في مرابعها...والبعث ينثر فوقها الشهب..." سيكون الحديث الهامس بين المدرسين عن هذا البعثي الصغير! كان هذا والبعث لم يتجاوز عمره في انقلابه سنتين!

ولا بد للمشهد الثقافي المبكر أن يكتمل ليزيد من أثر البيئة في الشخصية والاتجاه ! في المرحلة الابتدائية سأتعرف على جريدة (العروبة) المحلية. كانت المطبعة في قبو تحت محل جدتي لوالدتي. صورة العمال يصفون الأحرف الرصاصية ويلتقطونها بالملقط كأنها أمامي الآن! العمال الأنيقون بالمراييل الزرقاء، وصوت المطبعة (تشفط) شرائح الورق الكبيرة فتطبع عليها النصوص والصور. ثم عمليات طي الصحيفة وحزمها ليتم توزيعها فيما بعد...كل تلك مشاهد لا تنسى عرفتني على الصحف وطباعتها وتعرفت على أسماء بعض كتابها، ثم كانت الصحف رفيقتي في درب طويل جدا. سيكون الأستاذ محي الدين درويش (سوانح وبوارح) واحدا من الكتاب الثابتين ثم الأستاذ نورس السواح الذي سيكون ابنه وائل زميلي في الصف الأول الثانوي وسأرى اسمه لاحقا على قوائم اليسار السوري المعارض .

في المرحلة الابتدائية تلك، سيتكون جزء كبير من معرفتي وتعليمي، وروحي ووجداني. سيملأ قلبي حب بلدي ، وحب (بلاد العرب أوطاني) . سنغني نشيد الجزائر الكبير : قسما بالنازلات الماحقات... و:عقدنا العزم أن تحيا الجزائر.. فاشهدوا فاشهدوا فاشهدوا. سأعشق تلاوة القرآن من الشيخين المنشاوي وعبد الباسط عبد الصمد ، وسأهيم بتجليات مروان شيخو ، وستغمر روحي بطولات الصحابة الكرام....

هكذا تصنع شخصياتنا... أقدار في أُسرنا، وأقدار في مدارسنا ومعلمينا ، وأقدار في بيئاتنا ، وأقدار في قراءاتنا وكتبنا ومجلاتنا...أقدار تسوقنا ونحن نظن أننا نصنع أقدارنا!

هذه الذكريات من مدينة ابن الوليد حمصن بطعم الأكاسيا الحلو اللذيذ، ليست حلوة كلها ولا جميلة كلها، لكنها مما وعاه العقل والقلب فصارت جزءا من الحياة ونبض هذه الحياة.

وليد عماد الدين

قائد سلاح المغاوير وحافظ الأسد: الاكتشاف المتأخر!

كان المرحوم نجاتي السباعي المعروف في سورية جيدا باسم (أبو مغوار) قائدا لسلاح المغاوير في سورية في الخمسينيات من القرن الماضي. وسلاح المغاوير الذي سيعرف لاحقا باسم سلاح المظليين أو الوحدات الخاصة، هو قطاع من الجيش السوري كانت له سمعة خاصة على أنه سلاح مهم وذو قدرات مميزة، بسبب التدريبات الخاصة التي يقوم بها، والقسوة والشراسة التي ينبغي لمنتسبيه أن يتصفوا بها. وفي لقاءاتي التي تكررت معه في أوائل التسعينيات في جدة بالمملكة العربية السعودية، ذكر لي كثيرا من الوقائع والذكريات عن ماضيه في الجيش وعن ذكرياته في سلاح المغاوير حتى إنه سمى ابنه(مغوارا) . ولقد تحدث لي مرارا عن العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بينه وبين الراحلين حافظ الأسد ومصطفى طلاس، بسبب تقارب السن والعمل المشترك كقيادات في الجيش السوري. وقد أرسل المرحوم أبو مغوار إلى فرنسة في الستينيات كملحق عسكري ، وهناك أقدم على خطوة مميزة إذ درس الطب البشري في فرنسة وتخرج فعلا كطبيب مع أنه كان في سن الأربعين كما ذكر لي، حين بدأ الدراسة!

وقد دارت الأيام بالسيد نجاتي السباعي ، وعاش آخر أيامه في المملكة العربية السعودية. ولكن القصة التي يرويها عن حياته العسكرية تعطي فكرة واضحة عن أنماط الضباط السوريين في تلك المرحلة، وعن المشروعات المختلفة التي كانوا ينشطون عليها. فكم مرة تحدث المرحوم نجاتي عن تلك الفترة التي كان فيها هو وأقرانه يظنون أنهم يخدمون وطنا عزيزا ويقومون بالعمل الجاد تدريبا وتأهيلا، وهم لا يدرون أن زملاءهم أمثال حافظ الأسد كانوا يعملون على مشروعاتهم الخاصة التي هي بناء شبكة محكمة من الضباط ذوي الانتماءات الخاصة للسيطرة على الجيش السوري وعلى مقدرات سورية كلها فيما بعد!

كان السيد نجاتي يقول بين الأسى والقهر والاعتراف المتأخر بالخطأ: كنا في غفلتنا نتدرب وندرب ونعيش زهو الحياة العسكرية ونصاعتها كخدمة للوطن وللدفاع عنه حين الحاجة، ولا سيما من أجل تحرير فلسطين، وما كنا ندري أن حافظ الأسد الذي كان يخدم في مطار الضمير قرب دمشق، كان يشتغل ثماني عشرة ساعة يوميا ، يقوي مركزه في الجيش وسلاح الطيران وينسج شبكات من الضباط الموالين له من أجل تحقيق أهدافهم الخاصة...كان يتحسر دائما ويقول: ما أشد ما كانت غفلتنا وقلة انتباهتنا ! كان الأسد يمكر بنا ويقوي مركزه، غير آبه

بمقتضيات عمله العسكري وتدريباته ومتطلباته. كان يدير مشروعه الخاص: مشروع بناء قمعي دكتاتوري يستطيع بواسطته السيطرة على سورية كلها.

والحقيقة أن (جهود) الأسد تلك وتفانيه في السيطرة على مقدرات الجيش السوري ، أكدها كثيرون منهم الكاتب البريطاني باتريك سيل، الذي نقل عن باسل الأسد ابن حافظ الأسد قوله إنهم لم يكونوا يرون أباهم حين كانوا أطفالا، إلا مرة كل شهر. لقد كان مشغولا في بناء نسيج خاص داخل الجيش السوري، يؤهله للسيطرة على الجيش والمخابرات إلى آجال بعيدة، ويقيم به بنيانا باطنيا خاصا يتحكم فيه بمصائر سورية، التي ليس من بينها إقامة جيش قوي يستطيع الوقوف في وجه أطماع إسرائيل...لقد حقق الأسد أهدافه، وظهر هذا واضحا في حرب حزيران عام 1967، حيث كان حافظ الأسد وزيرا للدفاع، وممسكا هو ومجموعته بخناق الجيش السوري ، وما استطاع الجيش السوري يومها الوقوف في وجه الإسرائيليين حتى ساعات، فانهار سريعا واحتلت إسرائيل الجولان ودمرت دفاعات الجيش السوري، وكانت هزيمة مدوية بكل المقاييس. ولكن هذا لم يغير شيئا بالنسبة لحافظ الأسد، فمخططاته التي كان يسهر عليها ليس من بينها بناء جيش سوري قوي، بل بناء عصبة متمكنة داخل هذا الجيش.

مضى أبو مغوار، قائد سلاح المغاوير(المظليين أو الوحدات الخاصة فيما بعد) إلى رحمة ربه، وترك لنا مع زملائه من ضباط الجيش السوري آنذاك، ممن فاتهم إدراك مخططات الأسد ومقاصده الخبيثة، هما ثقيلا ونسيجا سرطانيا داخل الجيش السوري، يدفع الآن الشعب السوري ثمن القضاء عليه وتفكيك بنيانه واقتلاع جذوره إلى يوم القيامة بإذن الله.

القيادتان القطرية والقومية لحزب البعث العربي الاشتراكي

...وتظل الستينات والسبعينات من القرن الماضي أحد المفاتيح الأساسية لفهم ما يجري في الحاضر .والسبب بسيط جدا: إن الواقع الحالي بكل عناصره تقريبا، نتاج ما قام به الأسد في الستينات والسبعينات من (تأسيس) ووضع جذور عميقة لمشروعه في إقامة دولة بوليسية قمعية ذات عمود ارتكاز طائفي متين، مغلف بأغلفة شتى من شعارات وطنية وقومية

وتوجهات اقتصادية وعلاقات عربية ودولية ، تصب كلها في النهاية في دعم مشروعه السلطوي في سورية.

فيما يخص الحالة الشيوعية السورية، كان الشيوعيون أكثر خبرة في الواقع الداخلي السوري والدولي من أي فصيل آخر لأسباب موضوعية. فالحزب الشيوعي السوري بمختلف أجنحته، هو في النهاية عضو في منظومة الأحزاب الشيوعية التي تنتمي بدورها إلى الإطار الشامل الذي هو الحزب الشيوعي الروسي والدولة السوفييتية! ونظرا للعلاقات الوثيقة آنذاك بين النظام السوري والاتحاد السوفييتي، فإن العلاقة بين النظام السوري والحزب الشيوعي ، كانت ثلاثية أحيانا أركانها الدولة السورية والروسية والحزب الشيوعي السوري. مما وفر للشيوعيين السوريين فرصة الاندماج في الحياة السياسية السورية الداخلية والدولية أكثر من أي فصيل آخر. وحتى في حالات الخصام بين الحكم في سورية والشيوعيين السوريين، فقد كان الاتحاد السوفييتي حاضرا..

في تلك الفترة ، كان لي قريب في الحزب الشيوعي السوري(جناح واصل فيصل) ، وكان هذا القريب ، قريبا جدا من القيادة الحزبية الشيوعية. وكنت بحكم ضآلة خبرتي في العمل الساسي وقلة معلوماتي عن حقيقة السلطة في سورية، أتحدث أحيانا مع قريبي ذاك، وأذكر كلمات مثل القيادة القومية والقطرية وحزب البعث، ...إلى آخر ذلك من الهيئات والمنظمات. وفي أكثر من مرة كان يقول لي : يا ابن أخي ، لا تصدق هذه الخزعبلات والكيانات الوهمية والمنظمات...إننا نحن الشيوعيين نعرف الواقع جيدا. إن الحكم في سورية هو في الحقيقة والواقع الفعلي ، بيد مجموعة عسكرية مخابراتية صِرفة، بعضها خفي تقريبا...إن هذه المجموعة العسكرية التي كونها الأسد من أقرب المقربين إليه هي الحاكم الفعلي في سورية، وما تراه غير ذلك مجرد ديكورات.

مضى ذلك الرجل إلى لقاء ربه، وتتالت الأحداث في سورية في الثمانينات، ثم ما نشهده اليوم من ثورة سورية شعبية شاملة. ورأينا في كل مرحلة وكل أزمة أن الدولة في النهاية هي تلك العصابة العسكرية المخابراتية الطائفية الخاصة جدا، والتي تملك القرار الفعلي في سورية، بقيادة الأسد الأب ، ثم الأسد الابن اليوم...لا توجد في سورية قيادتان قطرية وقومية، ولا توجد أحزاب ومنظمات...يوجد فقط نظام بوليسي قمعي ، يسخر كل مقدرات سورية خدمة لمشروع دكتاتوري طائفي مقيت!

حافظ الأسد والدولة العلوية: المشروع المستحيل

بين (تعفف) عن الخوض في مسائل (تمزق) أبناء الوطن الواحد، وأنها مشروعات طائفية تصب في تقسيم سورية وتجزئتها. وبين اتجاهات (دموية) ترى في استئصال العلويين في سورية حلا لمشكلاتها التي دمرت سورية في الأعوام السبعة السابقة، بل ربما قبلها...بين هذين الحدين وعن يمينهما أو يسارهما، يحتاج السوريون لحكمة بالغة لمعرفة الأصوب أو الأنجع أو العملي في معالجة هذه المسألة.

ولا تكفي هذه المطالعة من صفحة واحدة إلا لإلقاء بعض الضوء على مشاهدات ومعاينات مباشرة من كاتب هذه السطور، يتذكرها بتفاصيلها الدقيقة، ويتأمل من خلالها تاريخا طويلا من آلام الشعب السوري ومعاناته، بسبب المشروع العلوي المدمر.

معظمنا يعرف أن اللجنة العسكرية لحزب البعث السوري ،المشكلة في أواخر الخمسينيات في مصر وتاليا في الستينيات في سورية، كانت تضم الضباط العلويين حافظ الأسد، وصلاح جديد ،ومحمد عمران ،وآخرين. هذه اللجنة كانت تسيطر على الجيش السوري عمليا، وقد كان من

صلب عملها الذي قاده صلاح جديد وحافظ الأسد بشكل مباشر، توسيع القاعدة العلوية في الجيش السوري، ولا سيما بين كبار الضباط. وانتهى الأمر مع حافظ الأسد إلى أن تكون قيادات الجيش والمخابرات الفاعلة عسكريا علوية في معظمها، إضافة إلى تشكيل ألوية وفرق خاصة، علوية بشكل شبه مطلق. ويعلم السوريون الذين التحقوا بالخدمة الإلزامية أو المتطوعون أنه قلما كان قائد فرقة، أو لواء ، أو كتيبة، أو سرية، أو فصيل، إلا علويا . وكذلك نائبه ومسؤول الأمن. هذه كانت شبه معروفة للجميع، غير أن انقلاب حافظ الأسد وسيطرته الكاملة على السلطة في تشرين الثاني 1970، كشف الأمور للعلن بصورة أكبر، وبدأ الحديث عن الهيمنة العلوية على السلطة ينتشر بين أوساط الناس، و(يختزن) من ثم ردود الأفعال التي تظهر في الحوادث الكبرى.

ولأن الأحاديث هنا تنزع نحو المعاينة المباشرة، يمكن نشر وقائع شخصية ، تضيء هذا الأمر.

التقيت صديقا من المرحلية الابتدائية (1960إلى 1966) مصادفة في حمص، في عام 1977 فيما أذكر. ولأن صداقة المرحلة الابتدائية ذات أثر كبير، فقد تجددت الصلة بعد انقطاع. وكان هذا الصديق علويا ، وكان يتحدث عن الموضوع العلوي بسبب أو دون سبب، بكل شفافية! ولأمر قدره الله، استمرت اللقاءات بيننا على مدار عام تقريبا، سافرنا فيها معا إلى دمشق، وكانت بيننا أحاديث كاشفة بكل معنى الكلمة. من أبرز ما حدثني به، أنه استدعي إلى إحدى الجهات الأمنية عام 1974. وقد اتهمه المسؤول الأمني بالقيام بأنشطة ضد الدولة. قال له صديقي(وهنا موضع الشاهد المباغت!) : أليست هذه الدولة علوية؟ قال الضابط :بلى. قال صديقي: ألست أنا علويا؟ قال بلى. قال كيف أكون علويا وأتآمر على دولتي!!! الحقيقة أن هذا الحوار الصريح في منتصف السبعينيات ، لا يدع مجالا للشك في أن البنية العلوية قد أضحت قوية ومتمكنة إلى حد أن يجاهر هذا الشخص بأن الدولة السورية دولة علوية!

وقد زرت مع هذا الصديق عددا من كبار ضباط الجيش في دمشق، كلهم علويون دون استثناء! والحقيقة أن هذا الصديق، أراني بالعين ما كنا نسمعه شفاها! فالقيادات العسكرية والمخابراتية المتنفذة علوية حصرا. وأما السبب الذي يجعل شابا لا يزيد عمره عن ثلاثة وعشرين عاما، موضع ترحيب استثنائي في البيوت من رتبة عقيد فما فوق، فهو قرابته المباشرة للساعد الأيمن لقائد سرايا الدفاع حينها رفعت الأسد!

وليس مبالغة القول إن كل سياسات حافظ الأسد الداخلية والخارجية سواء في مرحلة التمكين للهيمنة العلوية، أو بعد التمكين والسيطرة على مقدرات سورية وقواها المحلية ونفوذها الإقليمي، وموقعها الاستراتيجي في قلب العالم العربي، كانت كلها تصب استراتيجيا أساسا في خدمة المشروع العلوي! وهنا تكمن إشكالية كبرى: هل كان حافظ الأسد ومجموعته العلوية،

من (العمى الاستراتيجي) بحيث يغيب عنهم أن هذا المشروع مصيره الإخفاق والاندحار في النهاية مهما طال الزمن أو هيأوا له أسباب القوة؟ هل إن سيطرة على الجيش والمخابرات ومفاصل الدولة في دولة لا يزيد الوجود العلوي فيها عن عشرة بالمئة، وسط كثافة سكانية سنية معادية حكما وبالضرورة، يكفل لهذه الدولة البقاء والاستمرار! إن الجواب المباشر هو ما حدث في نهاية السبعينيات وأول الثمانينيات من القرن الماضي، وفيما يحدث في سورية منذ عام 2011 إلى الآن! إن مشروع الدولة العلوية في سورية مشروع خطير ومدمر ولن يستمر إلا مع مزيد من القتل والتدمير ربما إنهاء سورية كبلد وموقع عربي إسلامي له مكانته العالمية!

وهنا لا بد من التأمل في المقدرات الذهنية والأفق الاستراتيجي، لواضعي مشروع الدولة العلوية، سواء كانوا المجلس الملي للطائفة أو حافظ الأسد نفسه. إن الذين حاوروا الأسد أفصحوا مرارا عن (تفكيره الاستراتيجي) ، وعن مطالعاته التاريخية! وهي مفارقة فعلا. فهل غاب عن الأسد وجماعته، أن المشروع العلوي في سورية، ليس أفضل حالا ولا مستقبلا من مشروعات سابقة وحالية أخطر وأكبر، لكنها باءت بالإخفاق لأنها لم تنبت في مواضعها الحقيقية ولا في بيئتها المناسبة! إن المشروع الصليبي استمر مائتي عام ثم انتهى من المشرق العربي إلى غير رجعة. وإن مشروع الدولة الفاطمية(الإسماعيلية) قد انتهى في مصر السنية إلى غياهب النسيان وصار مجرد تاريخ! وإن الاستيطان الصهيوني في فلسطين، بالرغم من كل الدعم الدولي المقدم له، انتهى إلى دويلة صغيرة، معزولة عن محيطها، تقتات على المساعدات الغربية، وتتوسل القوة الضاربة الدموية فقط، وسيلة للبقاء. إن مشروع الدولة العلوية بالأحرى، لن يكون مصيره إلا الانحسار والانتهاء، طال الزمن أو قصر.

ويزيد من خطورة المشروع الطائفي العلوي في سورية، أنه لم يكن مشروعا سلطويا بحتا، بل انخرط فيه أبناء الطائفة العلوية أنفسهم في الأزمة في السبعينيات، وفي عملية القتل والتدمير اليوم، في عماية أيضا عن أفق هذا المشروع المغلق. لقد زجت الطائفة العلوية بشبابها في مذبحة حقيقية حين كانت وقودا لهذه المعركة ضد أبناء الشعب السوري. إن الحديث اليوم عن مئة ألف قتيل على الأقل من أبناء الطائفة العلوية من أصل مليون رجل وطفل وكبير في السن، هم كل رجال الطائفة العلوية في سورية، يدل على الخطأ الاستراتيجي القاتل الذي انخرط فيه العلويون في سورية، والذي أسس له حافظ الأسد. حقيقة أنه وجدت قلة قليلة فقط لم تنخرط في هذا المشروع المدمر أو قاومته. لكن انتهاء الأزمة الحالية في سورية، سيكشف حجم الاستئصال الذي تم في رجال العلويين وغير من بنيتهم الاجتماعية.

ولا شك أن سورية تدمرت بصورة شبه كلية بسبب المشروع العلوي. ولا شك أن أبناء السنة كانوا هم الخاسر الأكبر بشريا واقتصاديا وعليهم حلت كل أحقاد الروس والإيرانيين ومن

خلف ذلك إرادات دولية -وربما عربية- مريبة. لكن خسارة العلويين مقرونة بأعدادهم ، وتموضعهم الجغرافي، ومستقبل علاقتهم بأبناء الشعب السوري، خسارة أكبر وأبلغ. إن اضطرار الأعمى الأصم الأبكم الأسد الابن للاعتماد الكلي على الروس، ثم تصريحاته البليدة بأن الإيرانيين والشيعة اللبنانيين باقون في سورية ، تدل بصورة واضحة أن القوة البشرية للطائفة العلوية قد اضمحلت أو كادت، وأنه لا بد له من الاستعانة بالوجود الشيعي الإيراني واللبناني وباقي مرتزقة الشيعة من أقطار الأرض، ليستمر في البقاء.

لكن المشكلة ليست في المشروع العلوي فقط. إن المشكلة تكمن أيضا في رد النخب السورية المختلفة والجماهير السورية على هذا المشروع التدميري. هل كان الوعي بالمشروع العلوي وخطورته على سورية كلها-بما فيه العلويين- لم يكن كافيا، ليحبط هذا المشروع من البداية؟ هل كانت أساليب المواجهة منذ السبعينيات إلى اليوم، غير كافية، بل عاجزة وغير فعالة بحيث أودت بنا إلى ما نحن عليه اليوم؟ هل كان استخدام مواردنا الذاتية تفكيرا واستعدادا وتعبئة ومواجهة في غاية السوء أو قلة التدبير بحيث وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تهجير لملايين السوريين، واستشهاد مئات الآلاف، وتدمير ملايين الأسر والأطفال والنساء! مع المحافظة على الساحل السوري (سالما غانما)!

أزعم أننا نحن الذين عشنا تجربة الثمانينات، وشهدنا حجم القوة العارية التي استخدمها الأسد في مواجهته للشعب السوري، والوصول به إلى تدمير مدينة حماة بتلذذ وابتهاج عام1982، كنا نضع أيدينا على قلوبنا لما بدأ الشعب السوري انتفاضته العفوية الرائعة عام 2011!كانت فرحتنا الكبيرة مشوبة بالخوف من مصائر ومآلات حزينة. لكن الأمل دون شك كان أقوى وأكبر.

في أول مجالس التفكير حول احتمالات المستقبل، يذكر كاتب هذه السطور ، كيف أننا كنا نتخوف من آلة القتل المنتظرة! ومن الحس التدميري الأعمى لدى آل الأسد وضرورة من ثم، الارتقاء بتفكيرنا الاستراتيجي، بحيث نستطيع مواجهة التحديات المروعة المنتظرة.

مشروع الدولة العلوية الذي أثبت أنه حقود مدمر لا أفق له، يحتاج في هذه اللحظة وفي المستقبل ، إلى أساليب مواجهة تخفف من وطأته، لما له من دعم خارجي هائل. غير أنه يحتاج أيضا إلى إقناع النخب العلوية ولو بشكل متأخر جدا الآن، بأن انفضاضهم عن دعم هذا المشروع برجالهم ونسائهم وكل قواهم، هو واحد من أساليب انتهاء هذا المشروع بخسائر أقل! ليس مستبعدا أبدا، أن تنتهي قصة سورية (بدويلة) علوية قزمة على الساحل - تحرسها قاعدة حميميم الروسية وفق حل شامل يجعل سورية (متنوعة) على الطريقة العراقية. عندئذ سيكون أنموذج دويلة (جنوب السودان) حاضرا أيضا، حيث ستتفجر الخلافات الدموية بين قبائل النسيج العلوي! وحيث ستتفجر الحروب الدموية بين أمراء الحرب الأسديين وغيرهم.

قامت الدولة العلوية وفق نظرية ابن خلدون على عصبة متماسكة، وستنتهي هذه الدولة وربما انتهت فعلا وفق النظرية نفسها، أو بغيرها!

السيدة زينب: اللبنات الأولى لتشييع سورية

ليس من دليل أبدا على وجود جثمان السيدة زينب بنت الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم جميعا في المكان المعروف بالسيدة زينب جنوب دمشق. لكن المكان أضحى مع الزمن بمثابة حقيقة فعلية يصدقها الملايين ويعتبرون أنها مقام للسيدة زينب، وتدعوهم لزيارتها. ولقد أصبحت المنطقة سكنا ومزارا لعشرات الآلاف من الشيعة الذين توطنوا في المنطقة بحكم قيامهم بتقديم الخدمات للزوار القادمين بالملايين سنويا.

ولقد كان جزءا ثابتا في اهتمامي في السبعينيات ولاسيما أثناء وجودي في دمشق في الجامعة، أن أزور مختلف أرجاء سورية متقصيا عن المدن والبلدات ذات الخصوصية. لذا كانت زياراتي المتكررة لمقام السيدة زينب أمرا ضروريا لا بد منه. ولقد كان أول ما يلفت الانتباه هو أن الزائرين هم من غير السوريين في معظمهم. وأن هؤلاء يضمون جنسيات مختلفة من الشيعة في العالم. وكانت الملاحظة الثانية الواضحة أيضا حجم الإنفاق الكبير على المقام، وكثرة التبرعات النقدية والذهب والأحجار الكريمة التي كانت تلقى على الضريح. غير أن ذاكرتي تحتفظ بصورة واضحة للنقاشات التي أجريتها مع عدد من علماء الدين الأجانب الذين كانوا يقودون الزيارات. ولقد كان واضحا إتقانهم للغة العربية الفصحى. غير ان أكثر ما يلفت الانتباه هو تعطشهم للنقاش والجدال في المسألة الشيعية. وكما قال لي أحدهم وهو من باكستان، فإن الطفل عندنا يتعلم النقاش مع السنة منذ سنواته المبكرة في التعلم. وإنها لحقيقة لافتة أن علماء الشيعة متخصصون في النقاش مع السنة بأكثر بكثير من تخصصهم في علومهم هم! وأرى أن هناك جانبا نفسيا مهما في الموضوع هو شعورهم بالنقص تجاه أهل السنة بحكم كونهم أقلية ، وبحكم حاجتهم لإثبات ذواتهم والتيقن من مواقفهم.

غير أن الجانب الآخر اللافت في النقاش معهم، كان اعتقادهم الغريب بأن حافظ الأسد كان حافظا للقرآن! وأنه متدين يهتم بالقرآن، لذا فهم يؤيدونه ويتضامنون معه. ولم تفلح حججي أبدا في إقناع أي أحد بأن ذاك الرجل لا علاقة له بالدين على الإطلاق. كان الدعم الشيعي المذهبي للأسد حقيقة واقعة مردها بعض الاقتناع بأن الطائفة العلوية هم جزء من الشيعة وأن التحالف مع هذه الطائفة جزء من حزام شيعي كبير يحيط بالمنطقة العربية وهو همهم الأكبر على اي حال. ولا شك أن حافظ الأسد كان معنيا بإيجاد حزام شيعي لحكمه وسيطرته، فهو يدرك جيدا صغر قاعدته الشعبية في سورية في نهاية المطاف. لذا فقد كان احتضانه للعراقيين

الشيعة في دمشق معروفا. وكانت علاقته مع المعارضة الإيرانية أيام الشاه معروفة كذلك، ولاسيما في مجال تقديم الخدمات من جوازات سفر ومكاتب خارجية وتسهيلات. ولعل كثيرين يعلمون أن بعض رموز المعارضة الإيرانية مثل صادق قطب زادة كان مغطى بالكامل من ملاك وزارة الإعلام بدمشق والسفارة السورية في باريس. وكان ذلك منذ أول السبعينيات.

السلمية : عاصمة الإسماعيليين في العالم

الأسد يتصالح مع الآغا خان

لا يكاد المرء يصدق أن هذه المدينة الصغيرة بين حمص وحماة، هي أحد أهم عواصم الطائفة الإسماعيلية في العالم. والطائفة الإسماعيلية النزارية هي واحدة من الفرق التي انشقت عن الشيعة كما هو معروف. واتخاذ السلمية عاصمة للطائفة أتى بعد انتهاء أدوار العواصم

السابقة للإسماعيليين، ولاسيما القاهرة الفاطمية وقلعة (آلموت) المشهورة بزعيمها حسن الصباح وفرقته الحشاشين في إيران على بعد مئة كيلومتر من طهران.

ومن المعروف أيضا في التاريخ القريب ، أن نزاعا طويلا كان يفعل فعله في العلاقات بين الطائفتين العلوية والإسماعيلية، كما هو النزاع المرير بين الطائفتين العلوية والدرزية. ولقد قام الأسد كما يعرف السوريون الذين عاصروا الفترة التي سبقت استلام حافظ الأسد للسلطة ، بتصفية جميع الوجوه البارزة من السنة أولا ، ثم من بقية الطوائف مثل الإسماعيلية والموحدين الدروز ، لينفرد من ثم بعد تصفية زميله وشريكه صلاح جديد بالسلطة المطلقة في سورية كلها.

في سعيي لفهم تلوينات سورية على أرض الواقع، زرت السلمية في أول السبعينيات. وأمضيت وقتا طويلا في مركز الطائفة هناك. ولقد كان من حسن حظي أن أحد القائمين على المركز رحب بي كثيرا دون أي معرفة، وأطلعني على جوانب من عمل المركز. غير أن أول ما لفت نظري هو الصورة الكبيرة التي وضعت في مكان بارز من مركز الطائفة ، وهي التي تجمع بين الأسد وكريم آغا خان زعيم الطائفة الإسماعيلية النزارية في العالم . وأكد لي القائم على المركز أن كثيرا من الخلافات حلت بلقاء الرجلين، وأن الطائفة الإسماعيلية متصالحة مع واقعها الجديد حيث إن الأسد هو صاحب السلطة الأوحد في البلاد حينذاك. كان واضحا في حديثه بأن المصالحة كانت السبيل الواقعي الوحيد أمام الطائفة. ويؤسفني أنني لم أجد أي مصدر تاريخي قريب يتحدث عن لقاء الأسد بكريم خان في تلك الفترة فكأنه أهمل عمدا، خلافا للقاء الآغا خان نفسه ببشار الأسد لاحقا وهو لقاء جرى الاهتمام به كثيرا. (كريم خان زعيم الطائفة الإسماعلية من مواليد 1936)

وأما من الجانب الديني، فقد أخذني القائم على مركز الطائفة في جولة فيه. ولعل من أهم ما لفت انتباهي يومئذ هو عدم وجود مسجد أو مكان للصلاة في المركز. وهم يستعيضون عن الصلاة بمناسك يقومون بها في قاعة كبيرة أرانيها من خارجها. والمساجد في السلمية هي مساجد للسنة فقط على أي حال. وقد صادف وجودي هناك انتهاء أحد الاجتماعات في المركز، وكان المجتمعون رجالا ونساء ولم تكن أي من النساء محجبة كما يتوقع المرء من اجتماع داخل مركز ديني أساسا. ومن المعروف أن ظاهرة الحجاب غير معروفة اليوم بين أي من الطوائف غير السنية في سورية. ولم أر في السلمية أو في القرى العلوية أو الدرزية في الماضي أي امرأة شابة محجبة، عدا السيدات المتقدمات في السن ممن يلبسن الثياب التقليدية مع غطاء الرأس المعتاد في الأرياف السورية.

ولقد قمت أيضا بزيارة إلى أحد الأضرحة المقدسة عند الإسماعيليين. وكما هي عادة الناس في كثير من الملل والنحل فقد كان بعضهم يأتي بالورود والزهور إلى الضريح. وقد كانت إحدى العجائز تدور حول الضريح وتتمتم بالأدعية. والحقيقة فإن مثل هذه الصور تظهر وحدة (الاعتقاد الديني) العميق عند المؤمنين من كل الأديان ولا سيما تجاه الطقوس والتأمل والدعاء. كانت السيدة العجوز كما كل السيدات تظهر الخشوع والانصياع والتأدب وكل مظاهر العبادة والامتثال.

ولعل أكثر ما لفت انتباهي يومها هو انقسام الأسرة الواحدة في السلمية بين السنة والإسماعيلية! فأنت ترى إخوة أو أبناء عم أو أقرباء يتوزعون على كلتا الطائفتين، وهو ما لا نشاهده في أي مجتمع آخر. وأخبرني أحد المتقدمين في السن في السلمية يومها، أن هناك بعض السنة ممن يخفون سنيتهم ويظهرون أنهم إسماعيليون لأسباب مختلفة. وهو نفسه زعم لي أنه سني يخفي ذلك عن اسرته وأقربائه! وقد علمت فيما بعد أن بعض السنة قد تحولوا إلى المذهب الإسماعيلي فعلا، بسبب الدعاة الإسماعيليين النشطين.

والحقيقة أن الخلاف الإسماعيلي – العلوي العميق والتاريخي ، كان من أسباب انضمام كثير من أبناء السلمية إلى الحراك الثوري 2011 وما تلاه. والأشخاص الذين عرفتهم من الطائفة العلوية من السبعينيات، كانوا يكنون عداء شديدا للإسماعيليين، ولطالما عبروا عن حقدهم عليهم! وخلافا لما يدعى من (تحالف الأقليات) فإن الواقع السوري يقول إن التباينات المذهبية التاريخية ما تزال تعمل في المجتمع السوري بين أقلياته فيما بينها، وبين أقلياته وأكثريته! فالتباينات العميقة والعداء موجود بين الطائفة العلوية والدروز والإسماعيليين فيما بينهم، كما هو وجود التباين بين السنة والعلويين. وكذلك فإن التباين والكراهية موجودة فيما بين العلويين والشيعة الإثني عشرية السوريين (ويدعون في سورية ولبنان بالمتاولة) . ولعل من الواقعية أن نعترف بهذه التجمعات والتباينات ، وأن تكون مصدر تنوع وغنى في المجتمع السوري ، وليس مصدر عداء وكراهية.

ولعل مما ينبغي ذكره هنا أنه خلافا للرأي العام المعارض للأسد في السلمية ، فإن زعيم الطائفة كريم آغا خان يرتبط بعلاقة وثيقة مع بشار الأسد. ولقد قام في عام 2018 بزيارة إلى سورية بمناسبة مرور خمسين عاما على تسلمه إمامة الطائفة الإسماعيلية النزارية في العالم (1957) واستقبله فيها بشار الأسد، وحظي يومها باهتمام كبير.

* السويداء: موحدون عرب بلا مساجد!

كنت متشوفا جدا إلى معاينة أرجاء سورية والتعرف المباشر على مسالك مواطنيها ، ولا سيما ممن يقطنون الأطراف، أو يعتقدون خلاف المذهب السني الغالب. وكنت قد قرأت كثيرا عن الموحدين الدروز وتاريخهم وعقائدهم، مما دفعني وقد أصبحت في جامعة دمشق قريبا منهم ، في أول السبعينيات، إلى أن أبادر إلى زيارة مدينة السويداء بنفسي ، حيث الموحدون أهلها ومعظم سكانها(تسعون بالمائة تقريبا). فالزيارة العملية تريك أجزاء من الواقع العملي قد لا تتطابق تماما مع ما تقرؤه في الكتب أو وسائل الإعلام.

ما إن نزلت الفندق في أول وصولي حتى قمت بجولتي الأولى في مركز المدينة ثم أطرافها. كانت المدينة صغيرة حقا حينذاك. وكان من السهل أن تذرعها طولا وعرضا في وقت قصير. لكن ما تلاحظه مباشرة هو تلك الأرض غير المنبسطة هناك إذ ينبغي أن تصعد شوارعها وتهبط، وتعاند صخورها ومنحنياتها، فهي في مجملها أرض غير سهلة الانقياد.

وأما لبس معظم سيداتها اللواتي تجاوزن الأربعين، فكان اللباس التقليدي السابغ المحتشم، بغطاء الرأس الأبيض المختلف قليلا عن معظم الريف السوري، حيث يغلب الغطاء الملون المزركش على أغطية الرأس غير أن شاباتها كن على اللباس الشائع في سورية كلها من فستان وبنطال وبلوز، ولباس المدارس الشائع الإجباري مثل ثياب(الفتوة) . وغني عن

البيان هنا أن شابات السويداء لا يعرفن الحجاب، فهو ليس من فقه تلك المنطقة وذاك المذهب، خلافا للمناطق السنية التي كان الحجاب فيها يتجاور مع السفور بكل تلاوينهما وأشكالهما.

ويبدو أنه قلما يزور السويداء غرباء! فقد كنت أتجول في المدينة كغريب حقا، وكانت الناس تنظر إلي نظرها إلى كائن من خارج زمانهم ومكانهم، فكأنهم يتساءلون ما جاء بهذا الشاب إلى مدينتنا! وللأسف فلم أحظ بمناقشات مهمة مع أي من أبنائها في تلك الزيارة، عدا شاب واحد فتح لي قلبه وحدثني قليلا عن المدينة وهمومها.

ومن الضروري أن نعلم أن هناك خلافا قديما ومزعجا بين أهل السويداء وأهل درعا. وهذا الخلاف مبعثه اختلاف المذاهب الدينية والعقائد والتقاليد ، إضافة إلى الطبيعة الجغرافية التي تفصل بين المنطقتين. فدرعا وما حولها سهل منبسط، والسويداء مرتفعة عالية. وهذا الخلاف ينحسر تماما أو يبرز قويا عنيفا ، حسب الظروف والمتغيرات. بيد أنه كامن في بعض الصدور للأسف ، وسهل على من يريد إحداث الشقاق أن يشعل فتيله.

ومن طريف ما ذكر لي ذاك الشاب ان أهل درعا محظوظون بجملة من الأمور أكثر من حظوظ أهل السويداء. فمن ذلك السهول التي تعطي أهل درعا فرصة لزراعة كبيرة جدا تكاد تفي بحاجات سورية من القمح لو أحسن استغلال مواردها. ومنها أن مياه الأمطار التي تسقط على السويداء تنزع من عل إلى سهول درعا فتزيدها غنى على غناها. ومنها أن الطبيعة الجبلية للسويداء تجعل الزراعة فيها عسيرة والمحاصيل المناسبة للزراعة قليلة مثل الفواكه والأعناب.

غير أن موضع الشاهد هنا، وهو أبرز ما في زيارتي للسويداء أنني لم أجد فيها طولا وعرضا، مسجدا تقام فيه الصلاة، عدا مسجدا في مركز المدينة قيل لي إنه بني للمجندين من أهل المحافظات الذين يؤدون الخدمة الإلزامية في الجيش أو العاملين في دوائر الدولة من مختلف المحافظات. لكن هناك رواية أخرى على مواقع التواصل الاجتماعي تقول إن المسجد بني بمبادرة من عدد محدود من قاطني المدينة من أهل السنة من بقية المحافظات، وإن وجهاء المدينة الدروز أسهموا في البناء ورعوا المشروع رعاية كاملة. أما أهل السويداء فلا يصلون في المساجد إذ أن لهم عقيدتهم الخاصة، وطريقتهم الخاصة في الصلاة التي لا تحتاج إلى مساجد.

ولا شك أن السوريين جميعا يعرفون أن الزعيم سلطان باشا الأطرش زعيم السويداء التاريخي دون منازع، كان أحد أهم القيادات السورية التي ثارت على الاستعمار الفرنسي عام

1925، بل ربما كان هو القائد الأول فيها. غير أن للسياسيين والضباط الموحدين من أهل المحافظة قصصا كثيرة مع الحكم في سورية، بدءا من القيادات الكبيرة في الجيش السوري منذ الخمسينيات مثل الزعيم شوكت شقير رئيس أركان الجيش السوري، والضباط الكبار الآخرين مثل اللواء فهد الشاعر والعقيد سليم حاطوم قائد سلاح المظليين وغيرهم ممن لهم قصصهم المعروفة في كتب المذكرات وغيرها من المصادر. لكن هناك مسألة معروفة هي تخلص حافظ الأسد من كل الضباط من كل الاتجاهات بشكل متدرج منذ الستينيات بمن فيهم الضباط الدروز ، لينتهي إلى انفراده وأهل مدينته وقراباته بالسلطة انفرادا مطلقا. وتبقى مسألة تخلص الأسد من الضباط من أهل السويداء علامة فارقة في العلاقة مع السلطة سواء في عهد الأسد الأب أو الأسد الابن . وهي علاقة كراهية عميقة وربما مطلب بالثأر، لا تظهر على السطح بالضرورة، لكنها حقيقة واقعة.

ولا شك أن المدينة قد تغيرت كثيرا منذ السبعينيات، غير أن انتساب أهلها إلى مذهب الموحدين يبقى هو الحقيقة القائمة . وأما طبيعة علاقتها بالنظام فهي علاقة معقدة تتراوح بين معارضة شديدة لها جذور تاريخية تبدأ من عمليات التصفية المذكورة آنفا، ولا تنتهي بمواقف متباينة للفعاليات السياسية في المحافظة من الثورة السورية العظيمة 2011، حيث مال بعضهم إلى المشاركة في الثورة وتأييدها ميلا كبيرا، وظهر منهم وجوه بارزة ، أعرف منهم شخصيا الإنسان الراقي الأستاذ جبر الشوفي، ويعرف الجميع منهم الفنان سميح شقير الذي ألهب حماس الجماهير بأغنيته الجميلة الحزينة (يا حيف) بينما وقف قسم من أهلها محايدين وربما رأوا أن هذه الثورة ليست قضيتهم، ولا سيما بعد أن ظهر الاتجاه الإسلامي في كثير من فعاليات الثورة السورية.

كتيبي الصغير الذي منعه الرقيب الأردني

يوم أن قدمت كتيبي الصغير المتواضع (مسائل خاصة في العمل الإسلامي) إلى هيئة الرقابة على المطبوعات الأردنية، للسماح بطبعه لدى إحدى دور النشر الأردنية، لم يخطر ببالي أبدا أنني سأواجه ظروفا استثنائية فيما بعد تكاد تجعل من المستحيل الموافقة على طبعه . فهذا الكتيب الصغير الذي يضم حوالي ثمانين صفحة من القطع الصغير ، كان يضم جزءا من ملاحظاتي على العمل الإسلامي في سورية مما عايشته مباشرة في حقبة السبعينيات وأول الثمانينات من القرن الماضي. والكتيب هذا يضم مناقشة لموضوعات منها خيار القوة في العمل الإسلامي وجدواه، ومسألة الجانب الاقتصادي والعلمي في البناء، وقضايا الأمن والتحليل السياسي ، ومسائل أخرى من هذا القبيل. وكان تقديمي لهذا الكتيب في شهر تشرين الأول من عام 1985 حيث الأمور عادية والحكم في الأردن على خصومة كبيرة مع الأسد، مما لا يثير أي احتمال بالرفض.

لكن رسالة الملك حسين إلى رئيس وزرائه آنذاك زيد الرفاعي في تشرين الثاني 1985 ، قلبت الأمور رأسا على عقب، وأشاعت جوا خطيرا من التوتر والتوقعات ، ونتج عنها بالفعل تأثيرات سلبية على السوريين في الأردن، وكنت بطريقة ما أحد ضحايا هذه الرسالة! فقد ذهبت بعد أيام إلى هيئة الرقابة على المطبوعات لأعرف رأيهم، وقد كنت متيقنا حينها أنهم لن يوافقوا على النشر، يقيني السابق على الرسالة أنهم سيوافقون.

وبالفعل ما إن دخلت غرفة الموظف المسؤول وسألته عن الكتاب الذي عرفه فورا...حتى أعطانيه مع ابتسامات مع زملائه وقال خذ أوراقك وغب عن الوجه ولا ترجع أبدا... وبالطبع فقد اضطررت إلى طباعة الكتيب في لبنان حيث الرقابة شبه معدومة.

والحقيقة فإن الرقيب عموما حذر جدا وربما متوتر جدا تجاه أي كلمة، أو فكرة، أو كتاب، أو فيلم ...يشتم منه رائحة معارضة ولا سيما المعارضة السياسية . ومن تجاربي في الأردن بالذات أنني كنت أطلب أي فقرة أو مجلة ممنوعة من بعض الأصدقاء في لندن ليرسلوها لي بالبريد العادي فأفاجأ بتفاهة الموضوع المحذوف أو الجريدة الممنوعة. ويقينا فإن الملك أو المسؤولين الكبار سوف لن يلقوا بالا لهذه الممنوعات ، وسيسمحون بنشرها دون تردد. لكن الخوف الوظيفي المعتاد والحساسية المفرطة لدى موظفي الرقابة من أن يواجهوا أي انتقاد

أو لوم بسبب الفسح، كان يدفع بالرقيب إلى المنع والحظر تجاه أي مسألة يرى أنها قد تسبب وجعا في الدماغ!

في مدينة حمص وتجلياتها

الشيخ عبد العزيز عيون السود: علم قرآني لا يضاهى، ومفخرة كبرى لحمص

حديث بعض الإخوة عن صلاة التراويح في مسجد الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله تعالى ، دفعني ـ متأخرا للأسف ـ إلى الكتابة ولو قليلا عن تلك الفترة من التاريخ التي هي السبعينيات من القرن الماضي تحديدا، حيث نشط العمل الإسلامي في سورية نشاطا هائلا، على تناقض تام مع إحكام النظام القمعي الأسدي قبضته على سورية! ولابد لي أولا من تذكر قليل من مآثر الشيخ عبد العزيز رحمه الله مما عرفته من التردد عليه في مسجده لتعلم تلاوة القرآن الكريم. والشيخ رحمه الله كان يخصص وقتا للتعليم للطلبة يمتد من بعد صلاة الفجر حتى الثامنة تقريبا. وكان يساعده في التعليم في تلك الفترة الشيخ محمد جنيد رحمه الله، والشيخ الضرير أكرم رحمه الله تعالى. وقد كنا نقرأ على الشيخين، لكن الشيخ عبد العزيز كان يخصص لكل واحد منا وقتا خاصا، يشرف فيه شخصيا على تعليمنا التلاوة. وقد كان للشيخ اهتمام خاص جدا بمخارج الحروف، وفي طبيعة تحريك الكلمات وإتمام هذه الحركات على الوجه الأكمل. والحقيقة أن كثيرين يتقنون أحكام التجويد المعروفة من إدغام، وإخفاء، وإقلاب، وغيرها. لكن الحقيقة أن قلة ربما يعتنون بمخارج الحروف وإتقانها كما ينبغي ويتوجب. ولقد تبين فضل الشيخ رحمه الله في هذا ، حين قدر الله لنا أن نقرا مع بعض الإخوة من باقي المحافظات. فالحقيقة أن البون في هذا المجال كان واسعا.

والشيخ رحمه الله ، كان معلما للقرآن عظيما، ولكنه كان مربيا حنونا رحيما كذلك! كانت كلمته الساحرة(عمي) انتبه لكذا ، تملأ شغاف القلب. كان يجلس متربعا، بكل وقاره وهيبته، ويبدأ الاستماع إلينا من المصحف أو من حفظنا. وكان من عاداته أنه يبسط يده على فخذه الأيمن، ويبقيها كذلك ما كانت التلاوة صحيحة. حتى إذا غلط أحدنا رفع يده قليلا للتنبيه، ثم نطق بنفسه موضع التصحيح ليكون آكد وأدق! ولقد أنعم الله على عشرات من أقراني أو أكبر قليلا أو أصغر بالتعلم على يديه.

وقد كان للشيخ رحمه الله تراتبيته الخاصة في انتقاء الأئمة للصلاة في مسجده. فالمسجد لم يكن له إمام ثابت أو إمام راتب. بل كان الشيخ يختار من الموجودين من يراه أولى بالإمامة. وكل من يصلي في المسجد معروف لدى الشيخ في معظم الأحيان فهو يعرف كيف يختار أصلحهم للإمامة. وفي صلاة التراويح على ما ذكر الإخوة، كان المفضل لدى الشيخ هو الأخ المهندس بهجت الملا، فإذا تعب كان الأخ العزيز هيثم البيطار ثم غيرهما ...

وعلى ذكر التراتبية الخاصة بالشيخ، فقد كان للشباب عنده أولوية تدفع على العجب! فالشباب الذين قرأوا على يديه لهم الأولوية على الحضور كبارا وصغارا. والأكيد أن الشيخ كان يقدم الأقرأ أو الأحفظ لكتاب الله تعالى(على خلاف) لكنه كان يعطي فرصة التدرب للشباب دون شك. ولعل بعض الإخوة الذين يقرأون هذه الكلمات قد مروا بتجربة الإمامة في مسجد الشيخ، مما لم يكن متاحا في المساجد الأخرى. وقد فاجأني الشيخ مرة أو أكثر بتقديمي للإمامة دون

الآخرين وأنا في السادسة عشرة. وكان من عادته أن يطلب من أولاده أو ممن يأمره بالتقدم للإمامة أن يلبس عباءة الإمامة! وأظن أن الارتباك من المفاجأة ما زال في مخيلتي حتى الآن! وأذكر من مواقفه في دفع الشباب للمقدمة وتعليمهم بالممارسة، أن طلب مني أن أنادي لصلاة الظهر. وقد كان نداء (مرعبا) إذ لم يكن لدى صاحب هذه السطور صوتا جميلا، وكان في مراحل (تبلور الصوت) مما دفع أناسا للهرولة جزعا من صوت المؤذن! ثم كان الارتباك أثناء الإقامة كذلك . (فحي على الفلاح) قبل حي على الصلاة. والشيخ رحمه الله يبتسم ويصحح ويسدد، لكنه لا يتوقف أبدا عن تشجيع الشباب والأخذ بيدهم.

وللشيخ تراتبيته في صلاة الجمعة أيضا. فحين كان صهره الدكتور توفيق رحمه الله موجودا، فهو الخطيب. وإن لم يكن فالصهر الثاني (بل ربما الأول) الأخ رامز السباعي هو الخطيب . وهكذا من شاب إلى شاب، يعطون الفرصة للتدرب والممارسة. صفحات كثيرة يمكن كتابتها عن مآثر الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله ، في مجال التعليم والتربية خاصة، لكن مآثره في الحياة العامة والعلمية في مدينة حمص وسورية والعالم العربي ، تحتاج لوقفات خاصة. فالشيخ رحمه الله تعالى مفخرة من مفاخر مدينة حمص، والمدينون له بالتعلم منه جيلا بعد جيل لا يعدون. رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

الشيخ عبد الغفار الدروبي: حلاوة الإيمان وعذوبة القرآن!

إذا كان في قلبي مثقال من إيمان، فإن شطره ، ربما كان عن طريق الشيخ عبد الغفار الدروبي رحمه الله تعالى .وإذا كان من شيخ تخرج على يديه نخبة من أفضل ما أنجبت حمص من شباب، فهو الشيخ عبد الغفار ! وإذا كان من شيخ، كان الشباب يعودون إليه من الجامعات، وبعد التخرج حتى بعد الدكتوراة، فهو الشيخ عبد الغفار! هو أستاذ أجيال، ومرب لأجيال، وساكب الروح والإيمان والقرآن في قلوب أجيال! رحمك الله يا معلمنا رحمة واسعة، وجزاك الله عنا جميعا خير الجزاء.

كان الشيخ رحمه الله إيمانا هائلا وقرآنا شجيا عذبا، آتاه الله صوتا حنونا مميزا . لكن كان فيه امتزاج لهذا كله مع يقين بالله غريب. وأنا لا أشك لحظة واحدة في أنه واحد من أهل الله وخاصته!

كنت في الصف الثاني الإعدادي ، يوم بدأت الانتظام في دروس الشيخ، في مسجد جورة الشياح وسط مدينة حمص العزيزة. وكان الشيخ يعطي دروسه بين صلاتي المغرب والعشاء،

مثل بقية علماء حمص. وكان يقسم هذه الدروس بين الفقه الحنفي، حيث يشرح كتاب مراقي الفلاح، أو الهدية العلائية. ثم كتاب حياة الصحابة للعلامة الهندي الشيخ يوسف الكاندهلوي، وهو كتاب رائع ومؤثر ولا سيما لجيل الفتيان. ثم كان درس الحديث الشريف في رياض الصالحين ، وهو من أفضل ما يمكن تعليمه للشباب واليافعين. أما درس تفسير القرآن الكريم فكان تفسير النسفي، وهو تفسير موجز وفيه اهتمام جيد باللغة العربية.

لكن التلمذة على الشيخ رحمه الله كان لها بعد آخر أعظم من دروسه والتعلم منه. كان الشيخ رحمه الله في صلاتي المغرب والعشاء ، ثم في صلاة الفجر لمن كان بيته قريبا منه، في قراءته الجهرية بالذات ، يسكب في قلوبنا الإيمان والقرآن معا! كان الشيخ عظيم الارتباط بكتاب الله تعالى ، فكأنه هو هو روحه وقلبه وحياته وكل كينونته. كان القرآن من الشيخ يتنزل على قلوبنا وأفئدتنا كأنه يتنزل من السماء تنزيلا!

وفي دروسه تلك، كان الشيخ يشرح بتوسط. فهو لا يبتسر ويقتصر ويختصر اختصارا مخلا، لكنه لا يتوسع كثيرا في الشرح. بيد أنه كان يفسح جدا المجال للأسئلة. وقد كنت ربما من الذين يثقلون عليه في الأسئلة! وأذكر جيدا أنني سألته عن اتجاه الناس المقابلين للكعبة تماما من الجهة الثانية من الكرة الأرضية أثناء الصلاة! وهو سؤال مشروع بطبيعة الحال وله ما يشبهه في الفقه. لكنه كان من التساؤلات التي تخطر ببال الشباب واليافعين دون شك.

وللشيخ عبد الغفار رحمه الله جولات في التعليم والتربية . منها الحفلة الخطابية التي كانت تقام كل يوم اثنين بعد صلاة العشاء، حيث يدعى لها مشايخ وعلماء من بقية المحافظات. لكن قلوبنا كانت تتطلع دوما للحظة التي يأتي فيها دور الشيخ، فهي لحظة القرآن والروح وسكب الإيمان في القلوب الغضة الطرية! كان القرآن يتنزل علينا عبر الشيخ فيخالط افئدتنا، ويسكب فيها حب الله ورسوله وقرآنه. ياه..كم أنا مدين لك يا سيدي الشيخ في إيماني، وديني، ومحبتي للقرآن ،والإيمان!

خطب مرة عن قصة الشقيين (عقبة بن أي معيط، وأبي بن خلف) اللذين آذيا رسول الله كثيرا. ووالله إنني لحفظت منه الآية الكريمة" ويوم يعض الظالم على يديه. يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا. يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا. لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، وكان الشيطان للإنسان خذولا" ...حفظتها من تجلياته الروحية العظيمة يومها، وما زلت على حفظي لها من ذلك اليوم، قبل سبعة وخمسين عاما.

كان للشيخ تجلياته الإيمانية في خطب الجمعة أيضا. كانت تلاوته للقرآن في صلاة الجمعة أو في الخطبة نفسها، سحرا حلالا رائقا. لكن هذه التجليات تبلغ ذروتها يوم يتفاعل الشيخ رحمه الله مع حدث ما أو مناسبة. وفي مرة لا أنساها، وما أظن أحدا من حضور صلاة الجمعة يومئذ قد نسيها. جاءت إلى المسجد جنازة للصلاة عليها. وكانت الخطبة يومها واحدة من تجليات

الشيخ الباهرة. خصص الخطبة يومها للحديث عن الموت. فما تسمع في المسجد إلا بكاء، ونواحا، وعبرات، وتأوهات. الشيخ يعظ بالقرآن والناس تبكي فرقا. والشيخ يسكب روحه في التلاوة فتوجل القلوب رهبة وهلعا..، ما في القوم إلا باك ونائح وواجل. كانت واحدة من ساعات الشيخ الروحية التي امتزج فيها الإيمان مع القرآن مع جلال كلمات الله ...

وعودة إلى دروس الشيخ لتذكر مآثره ومناقبه. كان الشيخ رحمه الله كثير الحياء. ويوم كنا نصل في الفقه إلى موضوعات لا تفيد الفتيان الحاضرين أو تحرجهم، كان الشيخ يتجاوزها ، ويمر عليها سريعا. وكان من سيرته رحمه الله أنه لم يكن يوقف الدرس في غيابه لسفر أو حج. وكان أبنه الشيخ فيصل هو الأول إن حضر-وقليلا ما أذكره حضر-ثم ابنه الثاني عبد الوكيل رحمه الله تعالى رحمة واسعة. فإن غابا فالأستاذ العزيز عبد الإله النجار، أمد الله في عمره. ثم الأخ ظهير فاخوري وهو حي يرزق. ثم الأخ مراد البوشي وهو مقيم في الإمارات العربية المتحدة، ثم الدكتور عبد العزيز السباعي أستاذ الكيمياء في أكثر من جامعة عربية... وهكذا كانت هناك تراتبية معلومة لدى الجميع نعرفها ولا نحيد عنها.... وكان هناك إخوة آخرون كثر يتصدون لمهمة التدريس بكل كفاءة واقتدار. فهم كلهم أصحاب علم وثقافة عامة وشرعية تؤهلهم للتوجيه والتعليم.

ويشاء الله أن يمتحن كثير من شباب حمص ، في عامي **1979** و**1980**، فتمتلئ بهم السجون، ويغادر منهم من يغادر. ويضطر الشيخ عبد الغفار رحمه الله إلى المغادرة. ويشاء الله تعالى أن ألتقيه في المملكة في أوائل التسعينيات، في جدة، فيتجدد بلقائه الحنين إلى أيام خلت، كانت فيها حياتنا دروسا عند العلماء، ولقاءات مع الأتراب ، ونقاشات في الفكر والدين والحياة لا تنتهي...

!الشيخ وصفي المسدي: اغرف من بحار علمه لو استطعت

إذا كان الفرزدق ينحت من صخر، وجرير يغرف من بحر، فإن الشيخ وصفي المسدي رحمه الله تعالى كان هو وحده بحورا من علم غزير متنوع لا تملك إلا أن تغرف منه وتبالغ في !الغرف إن استطعت

قدر الله لي أن أختلف إلى الشيخ خلال عامين أو أكثر في حمص في السبعينيات. بعضها في مسجد القاسمي، موئل الشيخ الأصلي، ثم مسجد البازرباشي، لما كان مسجد القاسمي تحت التجديد والصيانة. وقد هالني فعلا ، ذلك العلم الغزير عند الشيخ وتنوع المعارف عنده، فهو يفسر القرآن الكريم ويقص السيرة ويشرح الحديث ويثري شروحه بفصاحة اللغة العربية وقواعدها وصرفها ونحوها...كل ذلك من ذاكرة (خزانية) وحضور بديهة ، وسلاسة في !التوضيح والبيان، مع لمسات روحية وصوفية تخالط شغاف القلب

لا أنسى واحدا من دروسه، حيث أمضى الوقت كله بين المغرب والعشاء، يشرح آية واحدة فقط من القرآن الكريم. ولا أنسى ما أثرى به شرحه من بيان ولغة ومواعظ رقيقة في ثنايا الشرح والتفصيل. ولتقريب الأمر للأخوات القارئات والإخوة القراء لمعرفة معنى أن يستغرق الشيخ ساعة كاملة في شرح آية، أذكر لهم أن الحديث لمدة ثلاث دقائق تقريبا، يقتضي قراءة صفحة واحدة من صفحات التصوير الضوئي المعروفة (A4) فإذا كان الشيخ قد استغرق خمسين دقيقة يشرح من عندياته آية كريمة فقط، فهو كأنه قرأ حوالي خمس عشرة صفحة !مرة واحدة

غير أن درسا آخر كان يأخذ بالألباب ، هو درسه بعد صلاة الظهر أيام رمضان الخوالي في .مسجد الدالاتي في أول شارع الحميدية بحمص

كان الشيخ رحمه الله يعطي درسا في السيرة النبوية. وقد كان الموضوع حينها، عن الذين أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمهم يوم فتح مكة ، وقال: اقتلوهم ولو رأيتموهم معلقين . بأستار الكعبة، لشدة ما آذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

لقد تتبع الشيخ سيرة هؤلاء واحدا واحدا، منذ أول الدعوة، إلى ما انتهى إليه مصيرهم فردا فردا، سواء منهم من أسلم وحسن إسلامه ، أو قتل فعلا، أو غير ذلك. كل هذا من ذاكرة حاضرة دقيقة متفحصة. وكما يعلم القراء، فإن السيرة النبوية مكتوبة في معظمها مرتبة

زمنيا. ولذا فالحديث عن هؤلاء يقتضي تتبعا دقيقا للسيرة من أولها إلى آخرها، حتى يلم بكل المعلومات الضرورية للبحث! وهو ما أتقنه الشيخ أيما إتقان.

كان العلماء في حمص، يجتمعون في فترة سابقة، في بيت مفتي حمص الأسبق الشيخ طيب الأتاسي رحمه الله تعالى. وقد حدثني جدي لوالدتي، وقد كان ملازما للعلماء، أن الشيخ وصفي رحمه الله تعالى، كان سيد العلماء دون منازع! فهو الأغزر علما، والأقوى حضورا، والأكثر إثراء ،وتمتيعا. كان الشيخ وصفي رحمه الله تعالى (سلطانا) حقيقيا في العلم والحضور والتربية، والتعليم، والتوجيه، والوعظ . هو بحق آية من آيات الله في خلقه.

الشيخ محمود جنيد: أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل!

لما طلب مني الكتابة في (النذير) عقب مغادرة سورية عام ثمانين، لم يتبادر إلى ذهني يومها ، سوى الكتابة عن الشهيد سلمان جنيد رحمه الله تعالى. فأنا أعرف هذا الشاب الرقيق الوديع

السمح صافي القلب من جهة، وهو صديق روح شقيقي الشهيد عماد الدين رحمه الله تعالى. لكن مدخلي إلى الكتابة عن سلمان، كان الكتابة عن والده الشيخ محمود جنيد رحمه الله تعالى. وليس الشيخ محمود بحاجة للتعريف به. لأن طبيعة حياته سواء من حيث الابتلاء بالمرض مبكرا وضعف الجسم ونحالته من ثم دائما، أو الزهد في الدنيا وعدم الاكتراث أبدا بالملبس والمأكل، أو العمل من كسب اليد والتجارة الصغيرة في السوق وسط حمص أو فقدانه لاثنين من الأبناء الشهداء: الصيدلاني المتخرج حديثا معروف، ثم الطالب في الهندسة المدنية سلمان، رحمهما الله تعالى رحمة واسعة، ثم أو الأهم : العلم والمرجعية والعمل في التدريس والتوجيه...كل ذلك غيض من فيض من مآثر الشيخ محمود رحمه الله هذا كله جعله معروفا مقدرا محترما من جميع الناس في المدينة..

كان للشيخ دروسه شبه اليومية للشباب في مسجد الشيخ كامل بين المغرب والعشاء، حيث هو مركز آخر من مراكز تنشئة اليافعين والشباب في ذلك الجزء من شرق حمص القديمة. ومن ذلك المسجد تخرج عشرات التلاميذ ممن درسوا على يد الشيخ. وكان له أيضا درسه في المسجد الكبير في وسط حمص، حيث كان يدرس شرح صحيح مسلم للإمام النووي رحمه الله تعالى. وهي الفترة التي عاصرته بها. وإن كان درس فيه في فترة أخرى شرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني. وكان هذا الدرس لمجموعة قليلة من الناس رزقها الله النشاط وحب العلم بحيث تأتي إلى المسجد من أنحاء متفرقة من المدينة بعيد صلاة الفجر..

لكن ما أحفظه من تلك الأيام في ذاكرتي عن الشيخ-وهي صور كثيرة متعددة- أنه كان يجلس مع مجموعة من الناس في غرفة من المسجد، لا يعملون شيئا سوى ذكر الله تعالى.

لم يغادر الشيخ محمود سورية كما اضطر إليه باقي العلماء والمشايخ في الثمانينيات. وبقي في المدينة مرجعا أول للناس، إلى أن انتقل إلى رحمة الله في التسعينيات.

وقد كان من إكرام الله تعالى للشيخ محمود، أن جنازته يوم توفي ، كانت من أكبر الجنائز التي عرفتها حمص على مدى عقود من الزمن. فيومها أغلقت متاجر حمص أبوابها، مسلمها ومسيحيها سواء. وكانت جنازة مهيبة عامرة بالناس الحزانى ، كما حدثني كل من لقيت بعد ذلك.

مسجد الشيخ كامل حيث كان الشيخ يدرس، كان أحد المراكز المهمة في الدعوة والتربية والتوجيه في تلك الفترة الذهبية من عمر الإسلام في سورية. والشيخ محمود كان شيخ هذا المسجد. وهو والعلماء الذين ذكرنا، كان لهم فضل كبير في تبرعم الإسلام وإزهاره، لما حباهم به الله من العلم والقدرة على العطاء والتأثير. لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد غيرهم ممن كان له أثره أيضا. ومن هؤلاء الذين لم يتح لي معرفتهم الشخصية، لكنني كنت وغيري نسمع بهم ونعرف تلاميذهم، الشيخ عبد الخالق الحصني رحمه الله تعالى. فهو كان له تلامذته

ومريدوه. ثم العلماء الآخرون مثل الشيخ محمد علي مشعل رحمه الله تعالى، الذي كان يشارك في الأمسيات الدينية والمحاضرات في المساجد . والشيخ المرحوم أبو السعود عبد السلام الذي كان يشارك بنشاط في جمعية العلماء وهو والد الأخ الدكتور فايز تخصص الأمراض النسائية، الذي قضى شهيدا في سبيل الله تعالى في سجن تدمر. إضافة إلى علماء آخرين لم يتيسر معرفتهم كثيرا أو اللقاء بهم.

العلماء (المشايخ) الشباب: التحول إلى الجامعات!

كان علماء حمص في السبعينيات من القرن الماضي، في حالة الازدهار والإزهار التي سبق الحديث عنها، في الخمسينيات من عمرهم. وكانوا في المجمل تلامذة على من سبقهم من كبار علماء حمص، عدا قلة مثل الشيخ عبد الخالق الحصني الذي كان من خريجي الأزهر في مصر. وكان المعهد الشرعي في حمص لاحقا هو المدرسة الأساسية التي تخرج العلماء. لكن الحقيقة أن الإقبال على هذا المعهد كان قليلا من أبناء المدينة، وأن معظم طلابه كانوا من ريف المحافظة. وعلى أي حال فلا بد من ملاحظة أن الشباب الذين كانوا يرغبون في الدراسة الشرعية والعلوم الإسلامية عموما، قد حولوا وجهتهم إلى كلية الشريعة بجامعة دمشق، التي أسسها الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى عام 1954، أو إلى كلية الشريعة بجامعة الأزهر، حيث كان للطلبة الحمصيين-وربما للسوريين عموما- بعض الامتيازات بسبب الصلة الوثيقة بين علماء حمص والمشايخ المعروفين في الأزهر ومنهم الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى.

لكن الحقيقة أن هذا التحول نحو الجامعات كان في معظمه تحولا يخرج أساتذة لتدريس مادة (التربية الدينية) في المدارس الحكومية، أكثر منه تحولا لتخريج العلماء على نمط العلماء السابقين! ونستطيع القول إن حمص لم تحظ بأجيال جديدة من العلماء يتابعون مسيرة من

خلفهم. ولقد اكتفى المدرسون خريجو الجامعات بالقيام بعملية التدريس، ولم يكن من صلب اهتمامهم العمل (كمشايخ) للعامة ، ولم يلبسوا الزي التقليدي للمشايخ من (جبة وعمامة) إلا في النادر.

غير أن حمص لم تكن خالية تماما من هؤلاء الشباب . وربما كان أكثرهم نشاطا يومها، الشيخ عدنان الأبرش رحمه الله تعالى، الذي كان يشرف على مسجد النور بحي الخالدية. وقد كان مسجده واحة نشاط كبير أعرف بعضه منذ عام 1968، لكن هذا النشاط توقف للأسف مع مغادرة الشيخ عدنان لسورية مضطرا ، عام 1973 فيما عرف بأحداث الدستور.

وكان ممن أذكره من مشايخ حمص الشباب، ممن لبس الجبة والعمامة، الشيخ عبد الباقي رمضون رحمه الله تعالى وقد غادر سورية مبكرا أيضا، والشيخ محمد برهان مندو صاحب مكتبة البرهان قرب السرايا القديمة وسط حمص وقد كنت دائم التردد عليه وتعلمت منه الكثير وأنا مدين له بحسن توجيهه وتربيته. والشيخ مصطفى تدبير رحمه الله تعالى -وقد كان إمام مسجد الدروبي وسط المدينة ، وكان له درس لقاطني الحي من عامة الناس، ولم يكن درسا كبيرا مثل باقي العلماء. وهناك أيضا الشيخ عبد المولى الأتاسي .لكن الحقيقة أن هؤلاء لسبب أو آخر لم يكونوا بارزين في التدريس والتوجيه والخطابة.

لكن قسما -مختلفا-من العلماء معظمهم من خريجي كلية الشريعة كان ينحو منحى صوفيا، وكان لهم نشاط واضح، وينبغي أن نفرد لهم وللحالة الصوفية، صفحة خاصة، لأن الحالة الصوفية كانت لا بأس بها من حيث الانتشار بين الناس.

وخلاصة القول هنا، إن حمص لم تحظ بجيل جديد من العلماء، وإن أحداث عامي 1979-1980 قد عصفت بالعمل الإسلامي عصفا شديدا وأخرجته من المشهد كله، إلى مطلع التسعينيات حيث عادت الروح فيما (سمعت) إلى المشهد الإسلامي في سورية ، وحمص من بين مدن سورية بطبيعة الحال.

هل نحن بحاجة دائمة إلى (مشايخ) وعلماء على ذلك النحو بالضبط؟؟ يترك ذلك لتطور الظروف دائما، لعدم القدرة على إحداث الحالة التي نريد في بلدنا! فالوضع العام سياسيا كان وما يزال ضاغطا ومؤثرا في المشاهد السورية كلها. وقد يكون المخرج الأمثل ، ولا شك في ذلك أبدا، أن يتحرر الشعب السوري في جميع مجلات الحياة، وأن تسلك الناس ما ترأتيه وترغب به، وعندئذ، سنرى مشاهد جديدة وحالات جديدة، وربما علماء بوضع جديد أيضا!

العلماء في حمص: ما الذي لم يكن

لعل ثناءني العاطر على تلك المجموعة الظاهرة من علماء حمص، ممن عرفتهم شخصيا، وأستطيع الكتابة عنهم بيسر وسهولة، لا يعني أنه لم يكن بالإمكان الانتقال من حالاتهم الفردية إلى حالة جماعية أو أكثر، تصنع في المدينة شيئا مختلفا ، وحالة علمية أكثر تقدما. وبطبيعة الحال فهذا ليس انتقاصا منهم أبدا، إنما هو وصف موضوعي للحالة القائمة آنذاك.

ولنقل ابتداء إن أول مظهر سلبي للنشاط (العلمائي)* في تلك الفترة، هو ندرة التأليف العلمي، إن لم نتحدث عن فقدانه كليا! فنحن لا نعلم أن أحدا من علماء حمص له مؤلف معروف ومتداول، أو كتابة في صحف أو مجلات عامة أو متخصصة. مع أن إمكانياتهم العلمية تسمح لهم بالتأليف بكل يسر. وربما كان هذا عائدا للطبيعة العربية التي تعتمد منذ القدم على المشافهة والحفظ، وليس على الكتابة أو النقش وحفظ الأوابد، وقلما كان عند العرب تدوين يعتد به. ولعل واحدة من نعم الإسلام العظيمة على العرب أنهم انتقلوا بنزول الوحي إلى مرحلة التدوين ثم تابعوا هذه المسيرة فيما بعد بتدوين الحديث والسيرة وباقي العلوم. ولا نستطيع التنبؤ متى كانوا سيصلون إلى تلك المرحلة لولا رحمة الله بهم بالقرآن! ومن الجلي أيضا أن التأليف يحتاج لبيئة علمية واجتماعية حاضنة، مما كانت حمص بعيدة عنه كل البعد في الستينيات والسبعينيات. وحتى مع انتقال العلماء إلى السعودية وغيرها، فإننا لم نشهد تأليفا علميا لأحد منهم أو من غيرهم. ومن الجدير بالذكر هنا أن كل النشاطات والشخصيات العامة أيضا ، ما كانت لتظهر إلا مع الانتقال إلى العاصمة دمشق، ولا سيما بسبب وجود الجامعة هناك وبسبب كونها عاصمة البلاد بشكل عام، وهو حال كل دول العالم تقريبا. ويمكن الحديث هنا بشكل خاص عن المرحوم الدكتور مصطفى السباعي. فهو مجايل للعلماء من أمثال الشيخ وصفي والشيخ عبد الغفار والشيخ عبد العزيز وغيرهم. لكنه بالإضافة إلى ألمعيته الاستثنائية دون شك، ودراسته في مصر التي مكنته من العمل الأكاديمي، ولقائه مع الإمام البنا ، أفاد من وجوده في دمشق كثيرا، وانتقل بهذا ليكون من أبرز الشخصيات السورية على الصعيد العلمي والسياسي أيضا. وكان من اليسير أن نراه عميدا لكلية الشريعة في دمشق، ومؤلفا لعديد الكتب، فضلا عن إشرافه على مجلة حضارة الإسلام. بمعنى أنه لم يكتف بالمشيخة التقليدية ، بل انتقل منها إلى العمل العلمي والتأليف والكتابة بشكل عام.

ومن الملاحظات أيضا أن العلماء لم يستطيعوا أن يصنعوا (حالة علمية) في المدينة وريفها كذلك. وعدا عن (المعهد العلمي الشرعي) الذي كان يؤمه أبناء ريف حمص بشكل رئيسي، وعن الثانوية الشرعية التابعة لوزارة التربية، فلم يكن هناك جو علمي فقهي يعتد به. أما الدروس التي كانت تلقى في المساجد والمحاضرات، فلم تكن دروسا متخصصة أو عالية المستوى علميا، بل كانت في الحقيقة من صناعة النشاط الدعوي الإسلامي. فتلامذة المشايخ والعلماء هم أبناء الحركة الإسلامية وصناعتها ، وكانت المساجد حكما هي المكان الطبيعي لوجودهم وتجمعهم. ونستطيع القول بأمانة إنه تم التقاء محمود بين العلماء الناشطين وبين أبناء الحركة الإسلامية وشبابها.

والملاحظة الثالثة الممتدة عن هذا الجو، هي عدم الانتقال إلى مرحلة الاجتهاد حتى البسيط في أمور المسلمين مما جد وظهر حديثا. وأستطيع أن أذكر هنا موضوع (الخلو) أو(الفروغ) كمثال. فمن المعلوم أن الفقه (التقليدي) يقوم على قواعد في البيع منها أن أحد شروط البيع هو أن يكون محله (عينا) يتحقق (حيازتها) . وهذا لا ينطبق على (الفروغ) بحال . فالفروغ هو مقابل مادي لأمر (معنوي) كشهرة المحل وموقعه في السوق...المهم أن السوق كان يبيع المحلات ويشتري والناس تأخذ (الخلو أو الفروغ) والمشايخ يصرون على أن هذا حرام! وقد حدثني المرحوم الشهيد نصوح جنيد الذي كان يدرس في الأزهر بالقاهرة، أنه التقى الشيخ محمد أبو زهرة ، وهو علم من أعلام الإسلام في عصره ، وأوضح له الشيخ أبو زهرة معاني شرعية مختلفة في موضوع البيع، انتهى منها إلى أن الفروغ مباح! ونقل المرحوم نصوح رأي الشيخ أبي زهرة إلى الشيخ محمود جنيد رحمه الله تعالى فسر به أيما سرور. وبغض النظر عن التفاصيل فإن الفكرة كلها أن آراء العلماء الفقهية بقيت حبيسة آراء الفقهاء التقليديين وقلما سمعنا باجتهاد لهم يواكب متغيرات الزمن. بل هناك شواهد كثيرة على دفاع (مستميت) عن آراء، تحول الناس عنها أو لم يكونوا عليها أصلا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، بسبب الانتصار للتقليد وعدم التطلع إلى تأويلات جديدة واجتهادات مختلفة تواكب المتغيرات. ومن الأمثلة الفاقعة أن بعض المساجد ولا سيما المسجد النوري الكبير بحمص، كانت تصلي الوتر في رمضان في جماعتين: واحدة للأحناف وواحدة للشافعية، بسبب طريقة صلاة الوتر (ثلاث ركعات متواصلات بينهن قعود) أو (ركعتان منفصلتان عن ركعة ثالثة تليهما)، بالإضافة إلى الاختلاف في نص دعاء القنوت أيضا. وقد حضرت شخصيا الشيخ أبو السعود عبد السلام رحمه الله تعالى في المسجد الكبير ، يعنف الذين اقترحوا أن يصلي الناس في جماعة واحدة ومكان واحد بدل الصلاة في مكانين مختلفين في اللحظة نفسها!

بقي أن نذكر أن المستوى العلمي لعلماء حمص، لم يكن ليقل عن مستوى أساتذة كلية الشريعة في جامعة دمشق التي كانت حينها موئل العمل الأكاديمي. وقد حدثني أكثر من أخ

انتسب إلى كلية الشريعة في السبعينيات وتتلمذ من قبل وأثناء دراسته على العلماء، أن المشايخ كانوا في بعض المجالات أقوى علميا من أساتذة كلية الشريعة. ولكن بعض أساتذة كلية الشريعة كانوا أكثر تخصصا ومنهجية بكثير من المشايخ في مجالات أخرى. فعلم القراءات مثلا، كان من نصيب المشايخ دون شك. وكذلك المعرفة باللغة العربية. أما الفقه المقارن فهو عمل أكاديمي بحت كان لأساتذة الجامعة فيه قصب السبق.

*على مذهب من يجوز النسبة إلى الجمع!

.الحالة الصوفية: جزء من المشهد الإسلامي السوري

التصوف في الثقافة الإسلامية والتاريخ الإسلامي كما هو معروف، اتجاه يعلي من شأن العناية بالروح، ويكثف الارتقاء بالأخلاق، ويزهد في الدنيا وزهرتها. يرغب في الآخرة، وينزع نحو الاقتصاد في الملبس والمطعم ومتع الحياة. إلى هذا الحد فإن المسلمين متفقون ولا خلاف بينهم. لكن المشكلة مع التصوف قديما وحديثا، أن المتصوفة لم يكتفوا فقط بهذا المفهوم، وإنما ذهبوا بعيدا في مظاهر عبادية غير معهودة في السنة المتواترة، ولاسيما حالات (الحضرة) التي تغالي في الحركات إلى حد يخرج به الإنسان عن الطور، فضلا عن تقديس المشايخ والمبالغة في التذلل لهم، وأشياء أخرى مشابهة.
في السبعينيات، كان على رأس الاتجاه الصوفي الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله في مدينة حلب، وإليه يرجع المتصوفة من (طريقته الشاذلية) في سورية كلها. أما شيخ الطريقة في

حمص، فكان في فترة الستينيات والسبعينيات ، الشيخ عبد الغني عيون السود رحمه الله، الذي أعرفه جيدا فقد كان بيتنه قريبا من بيتنا. لكن المهم هنا هو أن الشيخ عبد الغني كان محاطا بمجموعة من (الشيوخ) الشباب، خريجي الجامعات. منهم الشيخ عدنان السقا*، الذي أظنه كان النائب الأول للشيخ عبد الغني. ومنهم الشيخ رياض طليمات، والشيخ عبد الوكيل جوخدار والشيخ محمود حمادة، والشيخ سعيد الكحيل، وغيرهم . وهؤلاء ما زالوا على قيد الحياة. وقد كان هؤلاء يتميزون عن باقي المشايخ بعماماتهم المستطيلة وليست الدائرية، كما علماء حمص المعروفون! وكان لهؤلاء المشايخ الشباب نشاط ملحوظ. وقد استطاعوا أن يجمعوا حولهم كثيرا من المريدين من عامة الناس، خلافا لتلاميذ العلماء الذين كانوا في معظمهم من الطبقة المتعلمة، من المراحل الإعدادية إلى الجامعات والدكتوراة.

افترق المتصوفة في حمص عن باقي أبناء الاتجاه الإسلامي، بما كنا ندعوه(البعد عن السياسة!) والحقيقة أن فحوى الأمر هي نزوع المتصوفة نحو انعزالية معينة عن الحياة العامة، بينما الاتجاه الإسلامي(أو الإخواني بالأحرى) كان يريد الاهتمام بالشأن العام قدر الاهتمام بالتربية وتزكية الروح.

وكانت نقطة الافتراق الثانية، (الحضرات) أو مجالس الذكر. وقد كان الصوفية، يقيمون حلقة ذكر صباح كل يوم جمعة في المسجد النوري الكبير بحمص. ومجالس ذكر أخرى في مساجد متفرقة . أما حلقة الذكر هذه فهي ابتداء بالقرآن الكريم من أعذب الأصوات ثم الصلاة على النبي (عليه الصلاة والسلام) ثم أذكار وأوراد ثم أناشيد صوفية غاية في الجمال والروحانية ، حتى (يأخذ الحال) الجميع، فيتحلقون حلقا حلقا، يذكرون الله ويندمجون في هذا الذكر، إلى حد التمايل الجسدي، وصعود الآهات. وكلما زاد الوجد، طاف بين الحلقات مشايخهم، يزيدون من حال الوجد إلى حد (القفز) من على الأرض أحيانا. وقد كنت أجلس باستمرار إلى جانبهم استمتع بقراءات القرآن الجميلة، والأناشيد الصوفية الرائعة، فإذا قام الناس إلى الحلق انسحبت بهدوء!

كان الشيخ عبد الوكيل جوخدار يعرفني جيدا. وقد كنت أحضر بعض دروسه في مسجد الشيخ سعيد مراد قرب ساحة الحاج عاطف الأتاسي. ولطالما قال لي بعد (حضرة) الجمعة مازحا : ياشيخ وليد تبقى إلى جانبنا كل الوقت وتنصرف عنا حين تحمى الأمور؟؟ جرب يا أخي مشاركتنا! والحقيقة أنني لم أكن يوما مقتنعا بأن ما يفعلونه له أصل صحيح من كتاب أو سنة. وما أظن أحدا يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يجمع الصحابة في حلق ودوائر ويقوم بينهم جاريا، راكضا، قافزا في الهواء، وهم من حوله يتأوهون ويعلو صراخهم .... وعلى كل حال فهذا شان قديم. وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله عنهم فقال اتركوهم وشأنهم.

وبالفعل فإنه حتى المشايخ كانوا (يتركون المتصوفة وشأنهم) وما أظن أن المودة كانت قائمة بينهم على أي حال!
على أن أحداث نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات عصفت بالاتجاه الإسلامي من كل الاتجاهات، بما فيهم المتصوفة. وقد غادر بعض مشايخ الصوفية سورية في تلك الفترة وبقي بعضهم. ويقولون إن من بقي كان له دور كبير في رعاية الناس وتعليمهم وتوجيههم دينيا، لكن دون التركيز على مسألة التصوف. بل كانوا اتجاها تثقيفيا توجيهيا عاما.
كان التصوف وما يزال واحدا من تجليات الإسلام، اقتربنا منه أو بعدنا. ولكن أخطر ما في التصوف هو إمكانية استغلال مفهوم البعد عن الشأن العام، والانصراف إلى العناية بالشأن الشخصي الذاتي، إلى حد يبتعد بالإسلام عن مقاصده الأساسية في الحياة والأحياء.

*** توفي الشيخ عدنان السقا في تركيا رحمه الله تعالى.**

الحالة الدينية في حمص(وربما سورية!): هل الحمصيون متدينون حقا!

لن يستطيع أحد تصوير الحياة الدينية لدى أهل حمص وفي سورية خلال الستينيات والسبعينيات، في عجالة من القول. غير أنه يمكن إبداء مجموعة من الملاحظات السريعة:
1- معرفة الدين لدى عامة الناس كانت هامشية جدا في المدينة، وأسوأ منها في الأرياف. وأسباب ذلك محبطة حقا، فكأن الإسلام ليس له جذور ضاربة في هذا الشعب وهذه البلاد، وكأن الإسلام لم يأت هذه الأمة فيعلمها القراءة والكتابة منذ أربعة عشر قرنا! والحقيقة أنه ليست المعرفة الدينية فقط كانت هامشية. بل المعرفة كلها كانت في غاية السوء! إن الأمية في سورية في الستينيات كنت تبلغ حوالي 65% من السكان، مع نسبة مخيفة في الأرياف تقترب من 75% ولدى النساء حوالي 80%. ولا يتوقع من بلد بهذه الكثافة من الأمية أن يكون فيه معارف دينية وغير دينية. والحقيقة أنني منذ بدأت أهتم بالشأن العام، أستغرب مذهولا أحيانا، كيف أن أمتنا أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة! ويدهشني حقا كيف أن الأمة التي نقلها الله تعالى (بالكتاب) من الجاهلية إلى الإسلام، تنسى الكتاب كله، ويتفشى فيها الجهل والتخلف!
2- الالتزام الديني كان هشا: ربما يذكر من عاش تلك الفترة أن إقامة الصلاة كانت محصورة بكبار السن! لا أذكر -في عام 1965- أن هناك شابا في مسجد حينا، كان يصلي! ولا أذكر أن أحدا من أبناء حينا كان يصلي! بل إن واحدا فقط من الآباء كان يصلي في المسجد من بين

عشرات الآباء! وعام 1971 كان خمسة طلاب من عشرين طالبا في صفي في الثانوية العامة يقيمون الصلاة. هذا مؤشر واحد فقط لكنه يكتسي أهمية بالغة لأهمية الصلاة كما نعلم جميعا.
ولعل من المفيد ملاحظة الحالة الدينية المحزنة في الأرياف. فعندما كنا نذهب في مسجد الدعوة (جورة الشياح) إلى قرية عين التنور قرب حمص، للتنزه وممارسة الرياضات والسباحة، كنا نحن من يفتح المسجد لصلاة الجمعة! وكان منا من يخطب الجمعة أيضا. ولا أذكر أن أهل عين التنور كانوا يشاركوننا الصلاة إلا قلة منهم! وفي مرة من المرات ذهبت مجموعة من الشباب على الدراجات من مركز المدينة إلى ما بعد بحيرة قطينة، فما وجدوا مسجدا على الطريق. وإذا وجدوا مسجدا على جانب من الطريق، فقد كان مهجورا متروكا.
3- الوضع الديني النسائي في غاية السوء! للأسف لم يعرف الحمصيون الحجاب الساتر بصورة واضحة في الستينيات والسبعينيات. وسيكون مفاجئا ربما لبعض القراء أن يعلموا أن موضة (الميني جيب) كانت منتشرة جدا بين الفتيات في الستينيات. أما النساء المحافظات، فكن يلبسن التنانير الضيقة القصيرة، والجاكيتات الضيقة القصيرة أيضا، وإن كان بعضهن يضعن غطاء الوجه. وقد تكون الصورة هذه مغايرة للحال في الأحياء القديمة أو المحافظة، لكن الأحياء الحديثة كان يغلب على نسائها البعد عن مظاهر التدين.
وربما يتذكر مجايلي أيضا، أن النساء المحافظات حتى ، كن يظهرن بكامل زينتهن على الأقارب غير المحارم دون أدنى حرج! وعندما بدأ جيلنا في الطلب (الفج في معظم الأحيان) من أهلنا الانتباه إلى هذه المسائل، كانت ردات فعل أهلنا شديدة الاستغراب والقسوة أحيانا، إذ لم يكونوا يتصورون أنه لا ينبغي لشقيق الزوج أن يجلس مع زوجة شقيقه إلا بستر. وأرجو ألا يكون مؤذيا القول إن معظم أسر تلك الأيام كانت مختلطة حابلها بنابلها!
4- النشاط العلمي الشرعي كان ضيقا ومنعزلا. والحقيقة أن عدد العلماء العاملين في التعليم والتوجيه كان قليلا جدا مقرونا بعدد سكان المدينة. وإذ نذكر هنا أن عدد سكان(المدينة دون الريف) من المسلمين السنة في مطلع الستينيات كان يزيد عن مئة ألف وأن عدد العلماء العاملين لا يتجاوز عشرة ، تبين كم إن هذا العدد قليل جدا، مقرونا بحاجة أهل المدينة فعلا. ولعل من المحزن القول إن عدد العلماء قد انخفض بصورة كبيرة في الستينيات والسبعينيات عن عددهم في أوائل القرن! ولعل كثيرين يذكرون القول إنه كان في حمص مئة رجل من آل الأتاسي فقط، يضعون عمامة العلماء، فضلا عن بقية العلماء! وفي السبعينيات كان مفتي حمص هو الشيخ طيب الأتاسي رحمه الله، وكان هناك خريج واحد معمم هو الشيخ عبد المولى الأتاسي، وهما الوحيدان في حمص كلها من آل الأتاسي من العلماء على ما أذكر.

5-التأثير البعثي اليساري (الحكومي تاليا) كان كبيرا. ليس أقسى من الاعتراف بان المرحوم الدكتور مصطفى السباعي الذي كان ملء الدنيا يومها، ونائب رئيس المجلس النيابي وزعيم الإخوان المسلمين، والمدرس الجامعي، يخسر الانتخابات عام 1957 مقابل المرشح البعثي رياض المالكي! هذا في الخمسينيات. أما مع عام 1963 وسيطرة البعثيين على السلطة وتغييبهم لكل مظاهر الحياة السياسية والحريات في سورية، فقد أصبحت الفرصة سانحة جدا للاتجاهات اليسارية -المعادية للاتجاه الديني - لتقبض على زمام الأمور وتعطي الفرصة كاملة لكتابها ومثقفيها، فيسيطروا على وسائل الإعلام كافة. وتصبح مقدرات الدولة كلها تحت أيديهم! إن أسماء كثيرة برزت دون غيرها في الستينيات والسبعينيات مثل ممدوح عدوان، وسعد الله ونوس، وسهيل خضور، وحنا مينه وغيرهم. كلها أتيحت لها وسائل الإعلام دون غيرها، وكان ما يكتبونه في جوهره مناقض للدين ومعاد له.

هذه الصور الأربع، هي حالات جزئية . وربما هي قاصرة عن تصوير الوضع الديني الشعبي في مدينة حمص. لكنها تعطي فكرة عن حجم الجهود التي كان ينبغي أن تبذل لإعادة نشر الفهم الإسلامي، والثقافة الإسلامية، والالتزام الإسلامي، في المدينة. وما أظن أن الوضع يختلف كثيرا عن بقية المحافظات. بل ربما كان أسوأ في المحافظات الشرقية والشمالية، مثل الرقة والحسكة وإدلب، حيث تغلب نسبة الريف فيها نسبة المدينة، وهو ما يعني دائما، فقرا أكثر، وجهلا أكثر، ونكوصا عن الالتزام الديني أيضا.

أطباء حمص، وأطباء حمص الشهداء

جميلة هي القائمة التي ذكرت منذ أسابيع، عددا من أطباء حمص، سواء منهم من هو في الأحياء في حمص حتى اليوم ،أو ممن اختارهم الله لجواره، أو ممن قدر الله لهم الاغتراب والتفرق في أرجاء الأرض! وهي قائمة أصغر من الحقيقة طبعا، لأن أعداد الأطباء من مدينة حمص أكبر بكثير. هذا عدا أطباء باقي بلدات المحافظة وقراها . وإذ كان في جدول كتاباتي عن مرحلة السبعينيات، الكتابة عن شهداء تدمر، فإن ذكر هذه القائمة اليوم ، والكتابة عن معايناتي الشخصية عن فترة السبعينيات، ما يزيد الحافز على الكتابة وعلى التغني بشهداء حمص الأطباء وغير الأطباء، ممن قضوا في سبيل الله.

وأبدأ بالشهيد الحبيب شقيق الروح، الدكتور منصور جندل الرفاعي رحمه الله تعالى. ولأنه في المخيلة والبال أمامي الآن وفي كل لحظة، فما أسهل على القلم من أن يتملاه! فهو البهي الطلعة، فارع الطول، وضيء الوجه سمحه، ناصع بياض القلب والجبين والمحيا، دائم الابتسام، يقبل إليك بمودة ومحبة فكأن قلبه يسع الدنيا، ويحدثك فما تسمع منه إلا أحاديث بهجة وأمل. هو الطلة البهية، والحضور الجميل، والحديث الطيب، والخلق الرفيع. هو الحياء والخجل، وغض البصر وحفظ اللسان. ما سمعت منه كلمة خادشة للحياء، ولا رأيت منه إلا الذوق الرفيع، والأناقة والجمال وحسن المظهر والمخبر والنوايا ايضا، فيما أظن وأرى!

وربما قلة فقط من أهل مدينة حمص، يعرفون أن رئيس قسم الأذنية في السبعينيات، وأحد ألمع أساتذة كلية الطب بدمشق، وربما في الوطن العربي، كان ابن حمص أيضا، وهو الأستاذ الدكتور عبد الحي عباس. وكان هذا الأستاذ الكبير، يكن محبة استثنائية للدكتور منصور رحمه الله، حتى كان هو مرشحه لريادة قسم الأذنية من بعده. وفي مؤتمر طبي بدمشق، حدثني منصور رحمه الله أن الأستاذ عبد الحي عباس اختاره لتقديم بحث علمي، وكان وصية الأستاذ الكبير له، لأن هذه هي المرة الأولى لمنصور أن يتحدث في مؤتمر علمي كبير، أن يكون واثقا من نفسه، لأنه على قدر المسؤولية، وألا يتهيب الموقف أمام هذا الحشد الكبير من الأطباء من مختلف أرجاء العالم، فهو أهل لهذه المهمة وقادر عليها.

وقد كان في قسم الأذنية (مديرة طبية) تقوم بأعمال الإدارة. وكان من شغفها بالدكتور منصور رحمه الله أنها أوصته بكل جدية، أن يحمي نفسه من العين(بالخرزة الزرقاء)، فقد كان له من الحضور والمحبة ما يعز على الوصف. كان منصور ابن حمص الهادئة الوديعة، وكان ابن الدعوة والعمل والبناء. وكان ابن كلية الطب بدمشق، ولاسيما في قسم الدراسات العليا. وكان في نهاية المطاف واحدا من شهداء حمص وعطاءاتها.

وعلى مقربة من منصور، كان زوج شقيقته، الدكتور في قسم التخدير، ناصر السباعي رحمه الله تعالى . كان ناصر من ذلك النوع الهادئ جدا، نحيل الجسم جدا، سكين القسمات قليل الحديث إلا فيما يرضي الله. جدية ورصانة، وذكر لله وحديث بما يرضي الله. آتاه الله صوتا حنونا دافئا في تلاوة القرآن الكريم فهو الإمام إن حضر، والقرآن المتنزل على الأفئدة إن تلا، والدمع منهلا إن تحدث ! كان من أحباء الله وممن يحبون الله حبا جما. وما رأيت في حياتي من آتاه الله رقة وعذوبة وسكينة في تلاوة القرآن الكريم كما رأيت في ناصر رحمه الله. فهو من قلة قليلة جدا، روحها وشغفها وسكنها في كتاب الله تعالى.

وأما توفيق دراق السباعي رحمه الله تعالى، فقد كان من أوائل من رجع بشهادة (البورد) من كندا في الأمراض العصبية. بل لعله الحمصي الأول الذي عاد بهذا التخصص إلى حمص يومذاك. وإذا لم تخني الذاكرة فإنه رجع بشهادتين من كندا. واحدة في الأمراض الداخلية والثانية في الأمراض العصبية. وقد كانت عودته في أول السبعينيات. وقدر الله لي أن ألتقيه باستمرار في مسجد والد زوجته، الشيخ عبد العزيز عيون السود رحمه الله تعالى.

وقد رزق الله تعالى الدكتور توفيق، طلعة جميلة، وأخلاقا رائعة. وكان مما أذكره تماما، أنه من أوائل من ألبس زوجته (جلبابا) سابغا، في مدينة حمص. ولقد رأيت بأم عيني دهشة من رآه بجانب زوجته، فقد كان صورة فريدة قلما رآها الناس في حمص!

ولعل من جيل الأطباء الملتزمين في تلك الفترة من السبعينيات، الشهيد الدكتور فايز عبد السلام ، ابن الشيخ أبو السعود (عبد السلام) رحمه الله تعالى . وقد كان متخصصا في الأمراض النسائية، من قسم الدراسات العليا بجامعة دمشق.

ولا يغيب عن الذاكرة ، من أطباء حمص الشهداء، ذلك الطبيب الشاب عبد الحميد دياب، الذي جعل رسالة تخرجه من كلية الطب، كتابه الفريد الجميل (مع الطب في القرآن الكريم) . ولقد ظل ذلك الكتاب لسنوات طويلة، مرجعا في بابه، مع أن مؤلفه كان خريجا جديدا.

ومن أطباء حمص الشهداء أيضا، الدكتور عدنان العدوي رحمه الله تعالى. وقد كان الدكتور عدنان معروفا بدماثة الخلق، هو وإخوته جميعا. وكان من تفرده لحيته الكثيفة ، والتزامه الكبير أخلاقيا وأدبيا ودعويا. هو من الأطباء الجديين المثابرين. أذكره أمامي الآن يتحدث بحرقة عن الهجمة الشرسة من المخابرات والأمن على محتفلي مدينة حمص بذكرى مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وعن استشهاد أحد شباب المدينة بعد إصابته بطلق ناري. تلك الاحتفالات التي كانت أحد التعبيرات المهمة عن وجدان أهل حمص، ورفضهم الدفين العميق لنظام الأسد الأب، مما جعل السلطة تتميز حنقا، وتشعر بالتهديد والخطر، فما تجد أمامها ، كما هو الحال دائما، إلا تفريق المحتفلين أو المتظاهرين، بالنار والقمع والإرهاب!

ومن أطباء حمص الشهداء أيضا، الصديق الشخصي المهذب الوديع، طبيب الأسنان الشاب منيب النجار، وكذلك زميله في السكن أيام الدراسة، الدكتور عبد القاهر الأتاسي رحمه الله تعالى.

ولقد أنجبت حمص آلاف الأطباء من مختلف التخصصات، على مدار سنين طويلة. ولكن كان من بين هؤلاء، من (اتخذه) الله واختاره دون غيره ، شهيدا في سبيل الله. فكان قدرهم، أن يؤخذوا إلى سجن تدمر الرهيب، وأن ينفذ فيهم ذلك الطاغية الأب ، والد المجرم اليوم بشار الأسد، حكم الإعدام، بتوقيع صنوه في الإجرام والسفه وانتهاك الحرمات مصطفى طلاس، الذي كان يوقع أحكام الإعدام بيديه المجرمتين، فيكونوا شهداء ربانيين خلصا.

الماسونية والماسونيون في حمص!

الذي دفعني إلى الكتابة عن هذا الموضوع، هو المقال الذي نشره الدكتور كمال اللبواني منذ أيام ، نقلا عن باحث يلخص شيئا عن الماسونية في دمشق! والحقيقة أن الماسونية في حمص شأنها شأن الماسونية في بقية المحافظات والعالم، غامضة كثيرا، وخاضعة للتأويلات والتفسيرات. إنما قد يكون مفيدا البحث في هذا الموضوع ، ومشاركة من عنده معلومات موثقة ، لعل الصورة تتوضح وتكتمل.

ينبغي التذكير هنا بأن وجود الماسونية في سورية كان مألوفا جدا في جميع المحافظات. وقد تم منع الماسونية بشكل رسمي عام 1965 أيام الرئيس المرحوم أمين الحافظ. واعتبرت الماسونية من يومها منظمة خطيرة وصهيونية...بالطبع كنا في تلك الأيام نقرأ عن الماسونية لأن الكتب عنها كانت موجودة في المكتبات العامة أو المخصصة لبيع الكتب. وكل تلك الكتب كانت تتحدث عن أخطار الماسونية.

شخصيا، في أول السبعينيات من القرن الماضي، ولأول مرة فيما أذكر، وقع بيدي كتاب صغير مطبوع عن الماسونية في حمص! وقد اشتريت الكتاب من واحدة من المكتبات بصورة عادية.

أي كان الحصول عليه سهلا ، فما هو بالكتاب الممنوع. وللأسف فقد تم تدمير هذا الكتاب مع مكتبتي ومكتبة الأسرة كلها عام 1980، حيث أخفينا كتبنا كلها في بئر ماء جاف، ثم حفرت أرض البئر وأنشئ فوقها بناء سكني فيما نقل لي! والكتاب كان عدو السلطة الأول، في حملات المداهمة، ولو كانت المكتبة إسلامية أو متنوعة. المهم أن وجود المكتبات في البيوت !كان علامة من علامات الخيانة العظمى

من ذلك الكتاب أذكر بشكل جلي تماما ، صورة واحدة لماسوني هو الشيخ نديم الوفائي الذي يعرفه بعض الحمصيين من جيلي، وربما كثير من الأجيال السابقة. والحقيقة أن اسم الشيخ نديم الوفائي قد علق بذهني على مر السنين ولم أنسه، لسببين. الأول أنني كنت أراه باستمرار في حينا، في أول طريق طرابلس قرب مسجد الدروبي. والسبب الثاني، أن الشيخ نديم الوفائي كان يخطب الجمعة في المسجد الكبير أحيانا، وربما بالتناوب مع الشيخ رضا الجمالي ، .رحمهما الله معا ، إذ توفاهما الله تعالى في تلك الفترة فيما أظن

والشيخ نديم الوفائي لمن لا يعرفه، كان يختلف عن بقية المشايخ والعلماء بزيه. فهو لا يلبس جبة المشايخ أو عمامتهم، بل كان يلبس البنطال والجاكيت العادي، ويضع على رأسه طربوشا .أحمر (بلفة) مطرزة ، إن لم تخنني الذاكرة

ولم يكن للشيخ نديم حلقات علمية كما لبقية المشايخ. وقد لا يذكره أهل حمص من بين العلماء. لكنه في النهاية محسوب على المشايخ. وهل هناك أكثر أهمية من خطبة الجمعة في !المسجد النوري الكبير وسط حمص

هذا ما يحضرني اليوم عن الماسونية في حمص. وأرجو ممن عنده معلومات أخرى موثقة أن .يبادر إلى ذكرها هنا أو في أي موقع يرغب فيه

رؤساء سورية ومسؤولوها الحمصيون: تعفف عمر بن عبد العزيز!

في الصف الثاني الإعدادي عام 1966 ، كان جاري في المقعد شاب مهذب اسمه سامي الأتاسي. كنا صديقين قريبين لعامين فقط، لم أره بعدهما. كان هذا الطالب مثل بقية الطلاب. لا يحظى بانتباه خاص من الطلاب أو المدرسين. يدخل المدرسة ويخرج منها مثل بقية الطلاب. لا سيارة خاصة بانتظاره ولا مرافقة تعتني به دون غيره. فيما بعد سأكتشف أن هذا الطالب هو ابن الفريق لؤي الأتاسي ، رئيس الجمهورية العربية السورية لأشهر قليلة، والقائد العام للقوات المسلحة في سورية لفترة وجيزة، وقائد انقلاب البعث في آذار 1963! لم يكن لهذا الشاب أي معاملة خاصة أو حظوة، وما أظنه حصل على أي ميزة من كونه ابنا لرئيس جمهورية سابق حتى هذه اللحظة!

في الفترة نفسها تقريبا، سيكون الدكتور نور الدين الأتاسي وزيرا للداخلية البعثية ثم رئيسا للجمهورية بعد انقلاب 1966. أنا لم أر الدكتور نور الدين شخصيا لأنه قلما كان يأتي حمص. لكن والده الرجل الطيب ب(طربوشه) الأحمر وقامته المديدة ، كان جارا لنا قريبا جدا، وكنت أراه يوميا تقريبا فقد كان زبونا دائما لجدي لوالدتي. هو أيضا كان رجلا عاديا، ليس له أي امتيازات، أو حظوة، أو حرس خاص ،أو غير ذلك. كل الحي يعرف أنه والد وزير الداخلية أولا ، ورئيس الجمهورية العربية السورية فيما بعد، ثم نزيل السجون من انقلاب الأسد في تشرين الثاني 1970 حتى وفاته رحمه الله تعالى.

رئيس سورية الثالث من حمص ، وربما كان أشهرهم هو المرحوم هاشم الأتاسي. كان هاشم الأتاسي زعيما سوريا كبيرا قبيل الاستقلال وبعده. لكنه هو أيضا ما عرف أنه إلا التواضع والاستقامة ، وعدم حصوله على أي امتيازات خاصة.

المشكلة في هؤلاء الرؤساء الثلاثة رحمهم الله تعالى، أنهم كانوا مستقيمين جدا، وقليلي السطوة والنفوذ جدا، وغير فاعلين في خدمة أحد من أبناء مدينتهم جدا جدا! كانت حياتهم متواضعة، وتفانيهم في خدمة بلدهم مميزا، وكانوا مسؤولين وطنيين جدا جدا جدا!

هل هم أوصلونا لما نحن الآن عليه! هل كان الفريق لؤي الأتاسي عارفا بأن الذين جاؤوا به دون سابق علم ، وألبسوه (رداء البعث) ورداء الثورة ، ونياشين الفريق ورئاسة الجمهورية ، هل كان عارفا بأن هؤلاء لهم أغراضهم البعيدة ومخططاتهم الجهنمية في السيطرة الأمنية العسكرية الضيقة على مفاصل الدولة ومقدراتها!

هل كان الدكتور نور الدين، مذ كان وزيرا للداخلية، بيده الملفات الأمنية كلها، ثم لما صار رئيسا للجمهورية بيده ملفات السياسة الداخلية والخارجية معا، غير مدرك للمؤامرات التي كانت تحاك لإفراغ الجيش السوري من قياداته الوطنية وإسناد ذلك إلى أسرة واحدة، وطائفة واحدة، ومجموعة واحدة دون باقي أبناء الوطن!

هل كان هاشم الأتاسي الذي حارب الفرنسيين (سياسيا) من أجل استقلال سورية، لم يكن على بينة من أن هؤلاء الفرنسيين تركوا سورية مرغمين، لكنهم تركوها في أيد (أمينة) خفية فيما يبدو؟

أم أن الأمر مجرد طباع شخصية ، تكتفي بحب الوطن وخدمته، وتسليط الآخرين على مقدراته؟

والحقيقة أن الحمصيين رؤساء الجمهورية، ما كانوا هم فقط على هذا التعفف والاستقامة الأسطوريتين! كان معظم الوزراء الحمصيين كذلك! وكمثال فقط أذكر أن الدكتور شاكر الفحام كان وزيرا للتعليم التالي في السبعينيات. هو كان من مؤسسي حزب البعث. وكان قامة ثقافية كبيرة، لكنه كان (أرثوذكسيا) خياليا في استقامته! كان البعثيون يدخلون في الجامعات ومؤسسات الدولة بحق ودون حق و(غصبا) عنه ... لكنه كان غير مستعد لتجاوز القانون أو استخدام نفوذه مرة واحدة خلافا للنظام أو تيسيرا لأمر أحد. إن هذا يخل بمثاليته الفائقة. أذكر أن قريبا له أخذ شهادة الثانوية العامة بعلامات متواضعة، فقصده ليس ليدخله كلية الطب! بل ليدخله معهدا متوسطا أعلى قليلا مما تسمح به العلامات فرفض (بشمم) وإباء أن يدعم قريبه المسكين ولو ب(دفة) صغيرة.

هل المسؤولون الحمصيون عديمو الفاعلية فقط في البعث والسلطة؟؟؟ يبدو أنهم كذلك في أحزابهم ومنظماتهم حتى المعارضة منها! في تنظيم الإخوان المسلمين مثلا كان للحمصيين دور تنفيذي قوي على الدوام، وقد كانوا يستطيعون أن يحولوا الاتجاهات إلى ما يريدون.

لكنهم فيما يبدو كانوا يقتنعون دائما من الغنيمة (بالإياب) ... ليس أسهل على القيادي فيهم ألا يتطلع إلى قيادة عليا، ولا لنفوذ قوي، بل كان أفضل شيء يفعله هو توديع زملائه مترفعا عن (الخصومات) والمناكدات ، وتاركا زمام المبادرة والقيادة للآخرين!

رحم الله الدكتور مصطفى السباعي، المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية، وأحد أقوى رجال الإخوان المسلمين في العالم في حينه أيضا. لما حصل كلام عمن هو المراقب العام ، هو أو عصام العطار، آثر الانسحاب الهادئ ، وأعلن أن عصام العطار هو المراقب العام!

هل هو داء الاستقامة المفرطة؟ هل هو مصيبة عدم التوق والتطلع؟ هل هو(جبن) كامن في الأعماق ناتج عن عدم الصدام والاكتفاء بالتوسط والوساطات؟

في التاريخ غير المدقق، أن الذين سكنوا مدينة حمص في الفتح الإسلامي وبعده، هم العرب من قبائل اليمن، وهم عرب عرفوا بطيبتهم وسلميتهم وهدوئهم. هذا أخذه الحمصيون كابرا عن كابر ، وحافظوا عليه بكل أمانة واقتدار! أما غيرهم فكانوا (قيسيين) اشداء ، نالوا القيادة والزعامة بحق ودون حق، إنما بقوة الشكيمة والجلد وربما القتال!

أهل حمص طيبون حقا. بسطاء حقا. مسالمون حقا.... هل أقول (مطية) لغيرهم حقا حقا!!!!

سعد الله ونوس: أكره منبر المسجد!

وقف سعد الله ونوس، الكاتب الذي سيصبح أحد أشهر المسرحيين السوريين، وقال للجمهور (القليل) الذي قدم ليسمعه بعد أن اعتلى المنصة المرتفعة مترا عن الأرض: الحقيقة أنني أكره هذا الموقف بينكم. إنه يذكرني بمنبر المسجد، ومذبح الكنيسة!

سأكذب إن قلت إنني لم أفاجأ بهذه النبرة العالية من كراهية الدين وكراهية الإسلام، علنا وعلى منصة ثقافية هي في النهاية بين سوريين معظمهم يحبون دينهم ويغارون عليه. صحيح أنني أعرف مواقف سعد الله ونوس من كتاباته، لكن هذه المباشرة في الإعلان عن موقف كاره للدين من، كان أمرا في غاية الصدمة، وفي غاية القبح، وفي غاية الاستفزاز!

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها سعد الله ونوس وجها لوجه. كان ذلك في المركز الثقافي العربي بحمص، في مبناه الجديد على ناصية (طريق طرابلس) في أول السبعينيات. وهو لم ينتظر قليلا ليبث (أفكاره) أو كراهيته، أو حقده، أو تأزمه، أو اضطرابه، أو تراكمات تاريخ لا يحبه، بل يحقد عليه. هو لم ينتظر، بل بادر منذ اللحظة الأولى لاعتلائه المنصة ليعلن عن هذا الموقف. ولكنني لا أنسى أيضا، لمحات وجهه الصفراوية وابتساماته المتشفية... كأنه شيء ثقيل كان يجثم على صدره ثم وجد الفرصة ليعلن عنه!

وفي مركز ثقافي آخر هو المركز الثقافي العربي بدمشق، في السبعينيات كذلك، حضرت أمسية شعرية أخرى لشاعر صنعته (الثورة) هو الشاعر فائز خضور. كانت واحدة من قصائده متخمة بالاستعارات التاريخية الموحية ، ومن أهمها الإشارات الباطنية التي حملها وبثها عبر قصة ماء الحوأب وكلابه، والنباح الذي علقت عليه السيدة عائشة أم المؤمنين في القصة المشهورة.

إن سعد الله ونوس، وممدوح عدوان، ومحمد الماغوط ومحمد عمران وفائز خضور وهاني الراهب وغيرهم، هم أمثلة بارزة للهيمنة البعثية اليسارية على كل وسائل الإعلام والثقافة السورية ولاسيما بعد انقلاب البعث عام 1963. لقد أخليت الساحة لهؤلاء حصرا، ومنع غيرهم من الحضور. وبدا وكأن الساحة الثقافية السورية ساحة يسارية علمانية بعيدة عن كل ما يمت للإسلام والدين والمجتمع السوري المتدين أو المحافظ بصلة. بل كأنها معادية للدين والمجتمع!

وهذا الحديث ليس للانتقاص من قيمتهم الفكرية أو الثقافية أو الشعرية ...بل هو رواية لتاريخ عشناه ، تمت فيه مصادرة الدولة وأجهزتها ومواردها لخدمة تيار محدد ، يريد أن يغير ليس السلطة السياسية فحسب، بل الدين والأخلاق والمجتمع جميعا. هو مشروع استقصائي قمعي يتمترس وراء الدولة ويحتمي بها، ويسخر مواردها له، ويقصي كل آخر لا يريده أو لا ينسجم معه. ولم يكن هذا الآخر إلا الإسلام ومن يمت للإسلام بصلة!

وهذه الأمثلة من الاستقصائية العدوانية المفرطة تجاه الآخرين، لم تكن لتقف عند حد. كانت تعبر عن نفسها في أي فرصة تسنح لها. وقد ضجت دمشق يوما مثلا بصورة استفزازية غاية

في القبح رأيتها بنفسي في أكشاك الصحف ، حين رسم أحدهم امرأة عارية وملأ جسمها بآيات القرآن الكريم، وتفنن في وضع الكلمات على الأماكن الخاصة ، مما ينبئ عن الكم الهائل من الحقد والعدوانية. وفي إحدى الجامعات بكت طالبة بكاء مرا شاكية لشقيقها صديقي، كيف كتب أحد الطلاب في مجلة الحائط مخاطبا الفتاة شبه المنقبة : لا تنظري إلي بشهواتك من وراء نقابك...إن نقابك لن يستر شبقك وأحاسيسك ... كل هذه أمثلة متفرقة عن الطريقة التي سيطر فيها اليسار على الحالة الثقافية، وحجب بها كل القوى الحية في المجتمع أن تعبر عن نفسها.

والمسألة هنا ليست التعبير عن موقف سياسي أو ديني يخص كاتبه. إنما القضية هي أن يقوم (المثقف) أي مثقف بالاستقواء بالدولة وأجهزتها ، ليفرض أفكاره ومعتقداته، ويقصي بكل الوسائل القمعية الآخرين. وقد ابتليت سورية منذ البعث 1963 بهذه السياسات الإقصائية من قبل الدولة ، لكن القائمين عليها ومن يقف وراءها ليسوا فقط ضباط الأمن والمخابرات. بل هم (مثقفون) في نهاية المطاف! وهم بطريقة ما (الدماغ المخطط) للسلطة وقمعها وجبروتها، وليسوا فقط أدواتها. إن السلطة في الحقيقة هي التي كانت أدوات (المثقفين) اليساريين في إقصاء الآخرين ومصادرة حرياتهم.

ويمكن تبسيط المشهد بذكر الصحف والمجلات التي كان يديرها مثقفو الدولة في الستينيات والسبعينيات، والتي لن تجد فيها رائحة للإسلام أو مقالا تشتم منه رائحة الدين، أو اسما لكاتب فيه أثارة من دين! والحقيقة أنه عدا مجلة حضارة الإسلام التي أسسها المرحوم الدكتور مصطفى السباعي ، والتي كانت تعيش من اشتراكات قرائها أو بيعها في المكتبات الإسلامية، ولم تكن تتلقى أي تمويل من الدولة، فإنك لن تجد أبدا مجلة أو صحيفة باسم الإسلام أو قريبة من الإسلام! وكان لا يمكن أن يجد الكاتب ذو الاتجاه الإسلامي فسحة إلا فيما ندر ، للنشر في الصحف والمجلات. وإذا كنت تود الاطلاع على وجهة نظر إسلامية فليس أمامك إلا الصحف المهربة من بيروت!

وهذا لا يعني أن هذه الصحف والمجلات لم تكن لتنشر أشياء مفيدة. فهناك عشرات الكتاب السوريين وغيرهم، وعشرات غير السوريين أيضا ممن كانوا يكتبون في الصحف والمجلات السورية، ما هو عظيم ومفيد وقوي في تخصصه وقيمته العلمية، لكن الاقتراب من الإسلام كان ممنوعا، والسماح لكاتب إسلامي كان محظورا محظورا!

الإقصاء البعثي اليساري، كان واحدا من أسباب الأزمات التي عانت منها سورية، وعانى منها الوطن العربي عموما. ولنا أن نذكر هنا الحالة المصرية. فبعد أن كانت الساحة الثقافية المصرية ثرية بكل كتابها من مختلف الاتجاهات، ورأينا فيها طه حسين والعقاد والرافعي

والمازني ومحمد عبده ورشيد رضا ومحب الدين الخطيب وغيرهم من مختلف الاتجاهات والأفكار، إذا بنا نرى الساحة هذه خاوية بعد انقلاب 1952، ولم تعد ترى اسما لامعا مختلفا إلا قليلا.

الإقصاء مرض وعلة، من أي اتجاه كان. هو يقتل من أقصى بمثل ما يقتل من أقصي .

اختيارات الشعب السوري لن تكون تحت النظام ولا تحت الحركات المسلحة!

هناك نقاش مطروح دائما في المنتديات السياسية والإعلام عن المعارضة السورية المعتدلة، ومن هي هذه الحركات، وهل يمكن التعامل معها إقليميا ودوليا في صياغة مستقبل سورية. وآخر ما كتب في الموضوع المقالة التي كتبها السيد لبيب نحاس مسؤول العلاقات الخارجية في حركة أحرار الشام ،في صحيفة واشنطن بوست الأمريكية وفيها يرى أن الحركة لا علاقة لها بالقاعدة وأنها فصيل معتدل. طبعا يريد السيد لبيب نحاس توضيح موقف الحركة أو بالأحرى (تسويقها) غربيا. لكن السؤال الذي ينبغي أن نطرحه نحن السوريين على أنفسنا: هل الحركات الجهادية الإسلامية تمثل الشعب السوري وهل يراهن عليها فعلا في صناعة مستقبله، أم أنها فصائل (ظرفية) و (طارئة) وأنها قد تذوب وتتلاشى فور انتهاء الأزمة في سورية والتوصل إلى حل سياسي بطريقة ما؟ ولكن الصيغة الأصعب التي ينبغي طرحها هي: هل إن الفصائل المقاتلة الإسلامية هي تمثيل حقيقي للشعب السوري وتطلعاته للمستقبل؟ هل يتمنى الشعب السوري -أو جزء كبير منه- أن تحكمه جبهة النصرة أو أحرار الشام أو جيش الإسلام؟ الحقيقة أن الإجابة لا يمكن تلخيصها بسطور قليلة ، غير أننا نستطيع القول باطمئنان إلى أن هذه التنظيمات والفصائل جزء من الشعب السوري-وإن كان فيها غير سوريين قلائل- ولكنها ليست ممثلة لقطاع عريض من السوريين وليست طريقتها في السياسة الداخلية المنتظرة هي فعلا منتهى أحلام السوريين، وعلى هذه الفصائل أن تدرك

حقيقة أن استنادها إلى حاضنة شعبية ما اليوم هو نتاج رغبة الشعب السوري في الانعتاق من قمع النظام والقضاء عليه إلى غير رجعة، وليس نتاج تحديد اختيارات هذا الشعب المستقبلية في طريقة إدارة الدولة والمجتمع! ذلك أن اختيارات الشعب السوري لا يمكن تحديدها إلا في أجواء صحية حقيقية من الحريات السياسية دون خوف أو إكراه. وأعتقد أن من المناسب أن تبتعد الفصائل المقاتلة عن الهيمنة على المناطق المحررة وأن تترك إدارة هذه المناطق لا لهيئات شرعية ، بل لهيئات وطنية جامعة ، فالإسلام في سورية في قلوب السوريين جميعا، والسوريون لا يحتاجون لوصاية دينية عليهم من جبهة النصرة او جيش الإسلام أو أحرار الشام أو غيرها من الفصائل. الدور الجهادي للفصائل الإسلامية المقاتلة دور محترم ومقدر، وينبغي أن يكون بالنسبة لهذه الفصائل قربى إلى الله ورغبة في التزام ما يرضيه. أما حكم الشعب السوري فمسألة مؤجلة نسبيا وهي رهن بتحرره الكامل وانعتاقه.

الدكتور حسن الترابي: نجم إسلامي عالمي ، أخفتت ضياءَه سودانيتُه!

الاقتراب المباشر من إنسان عظيم في مجال الفكر والسياسة ، قد يفتح البصر أو البصيرة على جوانب لا ترى من خلال الكتب والمؤلفات. والدكتور الترابي رحمه الله تعالى كان (آية) في الإبداع الشخصي والحضور واللغة والإنجازات ، يعرفها كثيرون، وقد لمستها بنفسي بتقديرات من الله تعالى ودون ترتيب. فكانت إضافة مميزة لما كنت أقرأ له وعنه.

في منتصف الثمانينات من القرن الماضي، عقدت ندوة في العاصمة الأردنية عمان تحت عنوان الصحوة الإسلامية. وكانت برعاية الأمير الحسن بن طلال نائب الملك الأردني المرحوم الحسين بن طلال، ورئيس منتدى الفكر العربي حديث النشأة يومها في الأردن.

لقد كان حضور الدكتور الترابي وسط مجموعة من كبار مثقفي العالم العربي، لافتا واستثنائيا . وأكاد أجزم أنني ما رأيت يومها في تلك الندوة أكثر ذكاء وألمعية وبراعة من هذا الرجل العظيم.

للدكتور الراحل الترابي لغة عربية ليست متمكنة وراقية فحسب، بل لغة عربية خاصة به يبتدع نسيجها ويؤالف بين مفرداتها، ويتفنن بسهولة ويسر في نحت مصطلحاتها وتفجير طاقاتها ...الحق أنك حين تسمع المرحوم الترابي يتحدث، فإنك تسمع لغة عربية نسيج وحدها، لا يماثلها نسيج آخر أو يتشابه معها.

ولقد كان حين رأس إحدى الجلسات، فارع القامة الفكرية والإدارية والبهاء . فما إن يأخذ جانب التعليق أو إدارة الحوار حتى ترى الأساتذة الكبار يمتثلون وينصتون له بيسر فكأنما هو أستاذ الجميع وشقيقهم بآن! والحق أنني لم أر يومها ترددا منه في إيقاف أي متحدث مهما علا شأنه عند انتهاء مدة حديثه فكان له من الحضور وقوة الشخصية ما كفل له تقبل الجميع وامتثالهم.

وأما حين كان المتحدث الرئيسي ، فحدث ولا حرج عن التمكن الهائل من ناصية الفكر والفقه والسياسة والتاريخ والاجتماع ...قمة عالية جدا ، جعلت منه يومها، نجم المؤتمر وضياءه، لا أذكر أنه كان يجاريه في ذلك إلا ذاك الأمير الهاشمي الحسن بن طلال! كانا ثنائيا عظيما وراقيا ومتمكنا ، جعلا الندوة محطة فكرية وسياسية تأخذ بالألباب...وهي ربما مناسبة للتذكير بأن في العالم العربي والأردن شخصية رائعة جدا ومتفردة غابت ربما عن الأضواء ، هي شخصية الأمير الحسن بن طلال!

من ذكريات تلك الندوة ، أنني اقترحت على المرحوم الدكتور حسن هويدي ، المراقب العام للإخوان المسلمين السوريين ، ترتيب موعد خاص مع المرحوم الترابي، فأثنى على ذلك

مباشرة. لكن اللافت مقدار ثناء الدكتور حسن هويدي رحمه الله على الدكتور الترابي! والدكتور حسن هويدي على أنه طبيب متمكن، عالم إسلامي دون شك، وحين يعطي مكانة خاصة للدكتور الترابي، فهو يشهد عن علم وفكر وفقه. لقد أثنى على الفهم العميق للدكتور الترابي لأصول الإسلام ومقاصده ومراميه والاجتهاد فيه، إضافة لتمكنه من اللغات العالمية والفكر والسياسة الدوليين، فهو قامة إسلامية فارعة.

ولمن لا يعرف كثيرا عن الراحل الترابي ولا سيما من الشباب الذين لا يسمعون ربما إلا عن أخباره في الساحة السودانية، أذكر أن اثنين من السياسيين البريطانيين التقيا الدكتور الترابي في السودان ليقولا بعد اللقاء: لقد سعدنا بلقاء شخصية رائعة ورجل كبير تعلمنا منه في كل مجالات مباحثاتنا ونقاشاتنا معه.

أما الطبيب الذي أجرى له الجراحة بعد الضربة التي تعرض لها الراحل الترابي في كندا. فقد رفض أخذ أجر عن عمله وقال يومها إنه يفتخر بإجراء هذه العملية لهذا الرجل العظيم!

بقي أن نبدي رأيين لا ندري مقدار صوابهما!

أما الأول فهو أن الضربة التي تعرض لها الترابي على رأسه قد أثرت دون شك في أعصاب هذا الرجل وإمكانياته. فقد لاحظت شخصيا من متابعاتي له أنه بدا يبدي بعض العصبية وربما التشنج...

لكن الثاني وهو الأهم والأخطر، فهو أن المرحوم الترابي، أفقد العالمين العربي والإسلامي القدرة على الاستفادة من ألمعيته وإمكانياته الهائلة ، في انغماسه الشديد في الشأن السوداني! لقد كان يمكن له لو انتقل إلى الغرب -مثلا- وترك المسألة السودانية وتفرغ للشأن الإسلامي العالمي، أن يكون مرجعية إسلامية منفردة لا تضاهيها مرجعية أبدا! وأنا شخصيا مع احترامي الشديد للدكتور يوسف القرضاوي ومرجعيته وإنجازاته التي لا تتوقف، أرى أن الراحل الترابي كان يزيد عليه، قدراته السياسية المتميزة وخبراته الدولية المباشرة في عالم لا تنتهي صراعاته ، إضافة إلى فقهه الدستوري والقانوني مما هو مجال اختصاصه، مع لغة عربية رفيعة المستوى خاصة به جدا.

رحم الله الدكتور حسن الترابي رحمة واسعة. لقد كان بحق واحدا من الذين يصدق القول فيهم:" أمة وحده" والحق أن كاتب هذا السطور لم يقابل في حياته قامة فكرية وسياسية ومثقفة ومنجزة في عالم الواقع كما كان الدكتور الراحل حسن الترابي.

في مسألة (الإخوان المسلمين) بين السورية والمصرية والدولية!

هناك من الموضوعات السياسية ما يحتاج لحصافة متناهية في معالجته، ولا يسلم المرء عادة من ثغرات ما في الرؤية والتحليل مهما حاول الدقة أو تلمس الصواب ، عبر كل وسائل التحليل السياسي ومتعلقاته من تحليل تاريخي أو اجتماعي او ثقافي. لذا فما يكتب هنا يحاول قدر المستطاع الخروج برأي صائب. فإذا كان ذلك فبنعمة من الله. وإن جانبنا الصواب فهو اجتهاد لعل فيه منفعة أو أجرا.

إن مصطلح الإخوان المسلمين اليوم في وسائل الإعلام المتنوعة يذهب في معظم الأحيان إلى (تنظيم دولي) يضم تنظيمات الإخوان المسلمين المتفرقة في العالم. ولكن هناك أمرا شائكا جدا هو أن الإخوان المسلمين في مصر بالذات يستخدمون هذا الاسم في مواقفهم وتصريحاتهم فيما يتعلق بمشكلاتهم الداخلية في مصر تحديدا! بمعنى أنهم يستخدمون هذا الاسم وتتحمل تنظيمات الإخوان المسلمين في العالم، بل ربما كثير من التنظيمات الإسلامية في العالم تبعات

مواقفهم المصرية الخاصة!
والحقيقة أن أكثر من تنظيم إسلامي أدرك هذه (الإشكالية) مبكرا..فأعلن عدم ارتباطه من قريب او بعيد بتنظيم الإخوان المسلمين في مصر بالذات ومن التنظيم الدولي أحيانا.
ربما كان الوقت مناسبا جدا الآن لفك الارتباط بين اسم الإخوان المسلمين كمشروع إسلامي عام ، وبين الإخوان المسلمين المصريين حصرا. فإما أن يتحدث الإخوان المسلمون المصريون عن أنفسهم كإخوان مسلمين -فرع مصر مثلا. أو تنسحب كل تنظيمات الإخوان المسلمين (القطرية) من هذا الرداء الفضفاض بكل الطرق الممكنة وتترك اسم (الإخوان المسلمين) للمصريين فقط!
وفيما يتعلق بالإخوان المسلمين السوريين، فإن هذه الخطوة يجب اتخاذها اليوم قبل الغد. إذ لا يمكن لهم في محنتهم التي هي جزء من محنة الشعب السوري كله، أن يتحملوا أعباء انتماء تاريخي او عاطفي ، يكلف أثمانا باهظة ويرتب عليهم إشكالات قانونية وسياسية وتبعات مدمرة أحيانا ، فقط لأنهم يحملون هذا الاسم، بينما يشتغل على هذا الاسم الإخوان المسلمون المصريون بشكل رئيسي ، ويتحمل الإسلاميون في العالم كله كلفة هذه المواقف المصرية.
ويمكن تناول المسالة بصورة مباشرة أكثر اليوم، ولا يخالطنا اي حرج هنا وذلك فيما يتعلق بالاتفاق السعودي المصري الأخير. فقد اتخذ الإخوان المسلمون في مصر موقفا معينا من الاتفاق السعودي المصري بشأن إعادة جزيرتي تيران وصنافير إلى الملكية السعودية. ومن الجلي أن هذا الموقف يخصهم وحدهم كمصريين، وهم بالتأكيد لم يستشيروا (إخوانهم المسلمين) الآخرين، بل ربما لم يفطنوا بهم. بل بالتأكيد لم يخطر ببالهم ذلك! فلماذا ينبغي أن يكون موقف المصريين ملزما للإخوان المسلمين في العالم ، وفي حالتنا اليوم: الإخوان المسلمين السوريين! لا يحتاج السوريون إخوانا مسلمين وغير إخوان لأن يتحملوا أعباء أي مسالة أخرى، مهما كان الموقف منها. إن هموم السوريين ومآسيهم لا تعد ولا تحصى، وليس عندهم من فائض قوة أو قدرة ليتحملوا أعباء جديدة. ولا يظن أن احدا يطالبهم بمواقف أكثر كلفة مما هم عليه الآن.
والحقيقة فإن هذا الموضوع يتعلق بمسألة تنظيمية بحتة. أما على صعيد الشعب السوري فهو لا شك ممتن لقيادة مصر في عهد مرسي وللشعب المصري كله موقفهم الإيجابي العظيم في بداية المحنة السورية والاغتراب. وهو يرجو أن يستمر هذا ...وشكر الناس من شكر الله تعالى. ولا شك أيضا أن قسما كبيرا من ابناء الشعب السوري قد تعاطف مع محنة الرئيس المصري السابق محمد مرسي فهو في الأقل ، كان نصيرا قويا للشعب السوري كله، وكان يجلجل بنصرة الشعب السوري دون تردد ان تلعثم او تأويلات!

قيادات إخوانية مصرية: تَوهان بعد أربعين سنة من اغتيال زعيمهم

ربما كانت المرة الأولى التي ألتقي به أحد قيادات الإخوان المصريين، هي عام 1983. كان ذاك القيادي المعروف جيدا اسمه الحاج عباس السيسي. كان عضوا في مكتب الإرشاد الذي هو أعلى سلطة قيادية في الإخوان المصريين ، وباقي التنظيمات الإخوانية العربية . وللوهلة الأولى فإنك تتوقع أن تلتقي بقامة فكرية أو سياسية أو تنظيمية كبيرة. لكن خيبة أملي كانت كبيرة جدا يوم التقيت به. كنت أمام شخص لا يعرف بالضبط ماذا يريد وإلى أين يتجه وكيف سيصل. كان أسوأ ما في الأمر الذي سيتكرر مع غيره من القيادات التي عرفت المرحوم حسن البنا، والتي قدر لي أن ألتقيها، هي فقدانهم ذاك الرجل، وفقدانهم شيئا من البوصلة فيما بعده. كان لا يمكن للحاج عباس السيسي أن يقول جملتين دون أن يذكر حسن البنا ، وماذا قال البنا، وماذا فعل البنا.. كان لا يقول شيئا من عنده، ولا يعبر عن شيء من أفكاره الخاصة أو مرئياته أو وجهة نظره. كان بعد خمسة وثلاثين سنة من اغتيال البنا في ظله وتحت جناحه وفي الدرب الذي رسمه له.

ولعل ما يؤكد هذا ما رأيته من طبيعة العمل الذي كان يقوم به. كنت رأيته يجيب عن رسائل القراء العاطفية بإسهاب، فكأنه يملك كثيرا من فائض الوقت. وكان يتحدث إلى من يلتقيه عن أمور قد لا يخطر بالبال أنه من شواغل قيادي كبير في مكتب الإرشاد.

وقد لا تكون المشكلة في الحاج عباس السيسي نفسه أو في غيره من القيادات التي عاصرت البنا. فلربما كانت شخصية البنا طاغية أو حاضرة أو مؤثرة بحيث لم تترك لهم فرصة لإظهار ذواتهم أو شخصياتهم الخاصة. فالبنا بشهادة معاصريه من المصريين والعرب وغيرهم من

القيادات الإسلامية العالمية، كان أمرا استثنائيا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لذا فقد لا يكون غريبا جدا ألا تجد القيادات التي عاصرته فرصة كبيرة للخروج من ظله.

ولقد تكرر المشهد مع غير قيادي كبير في مكتب الإرشاد أو ما يتصل به. ومن هؤلاء المرحوم مصطفى مشهور الذي تسلم مهمة المرشد فيما بعد. والحقيقة فإن الشيخ مصطفى مشهور الذي التقيته مرتين فقط، كان غاية في الصرامة والعبوس والشدة للأسف الشديد، بحيث لا ترتاح له على الإطلاق! فضلا عن خواء كبير فيما يقدمه. لكن موضع الشهادة هنا هو الأمر نفسه: قال البنا وفعل البنا ورأى البنا.

ويؤسفني فعلا أن انطباعاتي عن القلائل الذين التقيتهم من قادة الإخوان المسلمين ، لم تكن بالانطباعات المريحة. وكان أسوأ ما فيها أنهم من تاريخ حسن البنا ومرحلة حسن البنا التي لم يغادرونها أبدا!

من نوبل توكل كرمان ، إلى نوبل ناديا مراد: خلاصة التحولات

ليست مفرحة أبدا جائزة نوبل للسلام التي نالتها المقهورة الإيزيدية العراقية ناديا مراد منذ أيام! فهذه السيدة التي تعرضت للخطف والسبي والاغتصاب على يد مجرمي داعش، وجاهرت بإعلان ذلك على الملأ، تقول بالفم الملآن إن جناية كبرى، وخللا عميقا، ومؤامرات دنيئة، انصبت على شعوب المنطقة العربية خلال الربيع العربي ، فأحالت تطلعاته الإنسانية وكفاح أبنائه من أجل الحرية والكرامة، قتلا ممنهجا، وسفكا للدماء، وتشويها خطيرا للدين الإسلامي ودوره من صياغة لإنسان حر نبيل، إلى دور دموي مدمر، فكأنه دين للقتل والخراب !بدل أن يكون دينا للإنسان وكرامة الإنسان

وتبدو الصورة أكثر قتامة، وأبلغ في الدلالة، حين نتذكر فرحتنا بجائزة نوبل للسلام، التي نالتها الناشطة اليمنية والمدافعة عن حقوق الإنسان السيدة توكل كرمان في أوج انتفاضة الشعوب العربية عام 2011. ففي تلك الفترة، قدمت السيدة توكل أنموذجا مضيئا للسيدات العربيات المناضلات، المشاركات الرجل في الكفاح. ولكن هذه الصورة الوضيئة ما لبثت أن بهتت واضمحلت، وانقلبت الآية فيها، لنحصل على جائزة نوبل للسلام، لسيدة من أوطاننا ، تعرضت باسم الإسلام لتدمير خطير في جسدها وروحها، فإذا هي شاهدة للأسف على مقدار ما حل بتطلعات الشعوب العربية من تشويه ومؤامرات ، وكيف انقضت على هذه الشعوب كل الفتن والدسائس وخيباتنا الداخلية ، فإذا بنا في رحلات مريرة من اللجوء، والقتل، .والاغتصاب، والدمار

وقصة توحش داعش في اجتياحه لبلدات العراق وسورية، وقصة فتاواه الخطيرة في السبي والاغتصاب والإماء واستباحة الأعراض والأموال والأنفس، تقول أيضا، إن فئة من بين أظهرنا، وبتآمر دنيء من أجهزة مخابرات متعددة ، نجحت في اختراق مجتمعاتنا وأفكارنا وثقافتنا، لنرى دون سابق إنذار أو علم، عصابات مدججة بالسلاح، تمتطي أحدث الآليات، وتملك ما لا يحصى من الموارد المالية، ومن معدات القتال الحديثة، تنشق من تحت الأرض، ثم توجه هذا كله ضد أبناء شعوبنا العربية في أماكن مختارة بعناية، لتدمر مشروع الانعتاق العربي، وتكثف قتلها واغتصابها وبؤسها وانحرافاتها ، فينقلب ربيعنا دمارا وهلاكا! وتنقلب صورة الشعوب العربية من شعوب مناضلة من أجل الحرية إلى شعوب مصدرة للعنف والقتل !والدمار

إن فهم داعش الدموي للإسلام، وفهمها السقيم لمنظومة الإسلام الشرعية والخلقية، يخيفنا دائما من صور متعددة لهذا الفهم، مما يجعلنا عرضة باستمرار للقتل والاستباحة والاغتصاب! وإذا كان داعشو الموصل قد افتتنوا باغتصاب الإيزيديات لسبب أو آخر، فإن هذا

الاتجاه في الاستباحة قد لا تنجو منه كل نسائنا في جولة قادمة! وعدم وقوفنا القوي الحاسم في وجه داعش وفهم داعش السقيم المنحرف للإسلام، الذي بدأ بالإيزيديات، قد يعطي الفرصة لدواعش جدد بصور جديدة، يستبيحون بها نساءنا وأموالنا وأعراضنا!

ولا شك أن زيارة ناديا مراد لإسرائيل والاحتفاء بها هناك، قد شوه من صورة هذه المرأة، وربما أثار شكوكا عميقة حول إمكانية استغلالها واستغلال محنة الإيزيديين وغيرهم، لصالح أعداء ظاهرين أو باطنيين، للعرب وقضاياهم. غير أن هذا يزيد من قتامة الصورة وسوداوية أوضاعنا وهشاشتها وحجم الجهود التي ينبغي بذلها لتصحيح مسارات عملنا.

اللحظة التي ظهرت فيها الناطقة باسم لجنة نوبل لتعلن منح الناشطة الإيزيدية ناديا مراد، كانت لحظة أسى وحزن ومرارة، بقدر ما كانت لحظة منح توكل كرمان للجائزة نفسها قبل سبعة أعوام، لحظة فرح وأمل وتطلعات. وهي تلخيص معبر جدا لمآسينا التي نصنعها بأيدينا حينا وبيد غيرنا حينا آخر، ولا نحصد من بعدها إلا المرارات!

بوح رمضاني:

كم أبكى الأسدان الأب والابن من أمهات وآباء!

رمضان 1980 كان مشتتا، غير واضح المعالم، لا نعرف ليله من نهاره. وله قصته فيما بعد. لكن رمضان 1981، كان رمضانا آخر ممضا أليما باكيا حزينا.... قبيل رمضان بأيام قليلة، أحسست بأن الجو في البيت بدأ بالتغير. الوجوم والتهيب والإحساس بشيء ما غير واضح قادم ! الوجوم بدأ على وجه والدتي ووالدي الذين كنت أسكن معهما في عمان بالأردن مثل مئات الأسر السورية التي هاجرت مرغمة إلى أصقاع الأرض. وكان الانفجار الأول للألم

والبكاء والانطواء والنحيب بدأ من السحور الأول في الليلة الأولى! كان أخي إحسان قد اعتقل لأسباب لا نعرفها في عام 1980. كان لا علاقة له بتنظيم ولا معارضة ولا اهتمام ربما بما يحدث في تلك الأيام! ومن ذلك السحور بدأت رحلتي مع مواسم الحزن والبكاء والفقد. أبي الذي يظهر عادة الصلابة والتماسك انهار في السحور الأول: أين أنت يا إحسان! على قيد الحياة؟ تتسحر خلف الزنزانات؟ أمي التي كانت أكثر تماسكا ، لم تصبر بعده إلا قليلا لتبدأ النحيب الصامت والأنين والدموع الغزيرة...وما جاء مغرب اليوم، وجلسنا للإفطار إلا وبدأت الموجة الثانية من البكاء والنحيب . ماذا تفطر يا إحسان؟ هل أنت حي يا ابني أم بين الأموات؟ وكان اليوم الأول هذا بسحوره وإفطاره، مشهدا سيتكرر معي أحد عشر عاما ، حتى آذن الله بأن يفرج عن أخي من السجن. ثلاثون يوما رمضانيا كل عام: أنت حي أم ميت يا إحسان؟ ماذا تتسحر، وماذا تفطر، وكيف تنام...كلها أسئلة يوميا تجعل السحور والإفطار مناحتين كاملتين ممضتين أليمتين. لكن رمضان بآلامه تلك ، ينتهي إلى يوم العيد أخيرا. ويحمل معه قمة الأحزان بعد شهر. كنت أهيئ نفسي لهذا اليوم جيدا لأنني أتوقع ما سيحدث فيه! أنت لا تستطيع أن تتحدث عن صبر لوالدين دخل ابنهما السجن وعمره سبعة عشر عاما، وهما لا يعرفان ابنهما إن كان من الأحياء أم من الأموات. وحتى بعد سنوات طويلة حيث عرفنا أنه حي يرزق، كان لا يمكن لأب او أم أن يعرفا طعما لسحور أو إفطار ، ثم يوم (العيد) وابنهما في حال لا يعلمها إلا الله! رمضانات متتالية، وأعياد فطر وأضحى متتالية، كانت مواسم للأنين واللوعة والنحيب الصامت... لم يأت رمضان منذ ذاك الحين إلا ويحمل لي معه حزنا وألما لا ينتهيان. أصدقاء وأحباب أمضوا سنوات طوالا وهم وأهلوهم في مآسي ولوعات. ثم جاءت 2011 لتحمل معها آلاما أكبر وأوجاعا أقسى. كل سحور وكل إفطار، أتذكر كل معتقلة ومعتقل، وأتذكر قبلهما قساوة الأمر على والديهما . المعتقلة تعاني، والمعتقل يعاني، لكن والديهما يموتان بطء في كل لحظة وفي كل مناسبة. اللهم في رمضان المبارك هذا ، ارفع الهم عن أهل سورية. اللهم أرح الآباء والأمهات بأن يخرج أبناؤهم وبناتهم من أسر طاغية الشام الصغير. اللهم فك أسر بناتنا وأبنائنا، وأخواتنا وإخواننا إنك على كل شيء قدير.

كتيبي الصغير الذي منعه الرقيب الأردني

يوم أن قدمت كتيبي الصغير المتواضع (مسائل خاصة في العمل الإسلامي) إلى هيئة الرقابة على المطبوعات الأردنية، للسماح بطبعه لدى إحدى دور النشر الأردنية، لم يخطر ببالي أبدا أنني سأواجه ظروفا استثنائية فيما بعد تكاد تجعل من المستحيل الموافقة على طبعه . فهذا الكتيب الصغير الذي يضم حوالي ثمانين صفحة من القطع الصغير ، كان يضم جزءا من ملاحظاتي على العمل الإسلامي في سورية مما عايشته مباشرة في حقبة السبعينيات وأول الثمانينات من القرن الماضي. والكتيب هذا يضم مناقشة لموضوعات منها خيار القوة في العمل الإسلامي وجدواه، ومسألة الجانب الاقتصادي والعلمي في البناء، وقضايا الأمن والتحليل السياسي ، ومسائل أخرى من هذا القبيل. وكان تقديمي لهذا الكتيب في شهر تشرين الأول من عام 1985 حيث الأمور عادية والحكم في الأردن على خصومة كبيرة مع الأسد، مما لا يثير أي احتمال بالرفض.

لكن رسالة الملك حسين إلى رئيس وزرائه آنذاك زيد الرفاعي في تشرين الثاني 1985 ، قلبت الأمور رأسا على عقب، وأشاعت جوا خطيرا من التوتر والتوقعات ، ونتج عنها بالفعل تأثيرات سلبية على السوريين في الأردن، وكنت بطريقة ما أحد ضحايا هذه الرسالة! فقد ذهبت بعد أيام إلى هيئة الرقابة على المطبوعات لأعرف رأيهم، وقد كنت متيقنا حينها أنهم لن يوافقوا على النشر، يقيني السابق على الرسالة أنهم سيوافقون.

وبالفعل ما إن دخلت غرفة الموظف المسؤول وسألته عن الكتاب الذي عرفه فورا...حتى أعطانيه مع ابتسامات مع زملائه وقال خذ أوراقك وغب عن الوجه ولا ترجع أبدا... وبالطبع فقد اضطررت إلى طباعة الكتيب في لبنان حيث الرقابة شبه معدومة.

والحقيقة فإن الرقيب عموما حذر جدا وربما متوتر جدا تجاه أي كلمة، أو فكرة، أو كتاب، أو فيلم ...يشتم منه رائحة معارضة ولا سيما المعارضة السياسية . ومن تجاربي في الأردن بالذات أنني كنت أطلب أي فقرة أو مجلة ممنوعة من بعض الأصدقاء في لندن ليرسلوها لي بالبريد العادي فأفاجأ بتفاهة الموضوع المحذوف أو الجريدة الممنوعة. ويقينا فإن الملك أو المسؤولين الكبار سوف لن يلقوا بالا لهذه الممنوعات ، وسيسمحون بنشرها دون تردد. لكن الخوف الوظيفي المعتاد والحساسية المفرطة لدى موظفي الرقابة من أن يواجهوا أي انتقاد أو لوم بسبب الفسح، كان يدفع بالرقيب إلى المنع والحظر تجاه أي مسألة يرى أنها قد تسبب وجعا في الدماغ!